كتاب الهلال
سلسلة ثقافية شهرية

الصور

محمد السباعى



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL
سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »
رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
صالح جودت
المشرف الفني : جمال قطب
سكرتير التحرير : عايدة عياد

مركز الإدارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٥ر٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاة بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الحب

وردة أوجدتها الشمس فوهبت للشمس نضرتها ، وخميلة أحياها السحاب :

فهى تثنى على السحاب ثناء
طيب النشر ذائعا فى البلاد

وكلمات لولاك ما كانت . تريدك لأنها لا تعرف سواك .

لا لمال أكتب ، ولا شهرة . بل ان حسنة كانت لنا فى سالف الزمن سلبها الدهر بعد الهبة . وكما أن المصور الذى ثكل ولده يأخذ الريشة فيرسم من ذاكرته صورة غلامه . كذلك تناولت القلم أنقش على الطرس صورة الماضى ، فلما فرغت عكفت على الصورة وبى من الحرارة ما بالمصور العاكف على صورة فقيده . ولكنها حرارة لذيذة ، ذلك سبب كتابتى ،

لا لمال ولا شهرة . دع المال يعبث بالعالم عبث الوليد بالكرة ، يجلب القصور والضياع ، والخدم والأتباع . دع المال يشتري العقيدة والمذهب ، والمودة والحب ، والكواعب الغيد ، والأحرار والعبيد . ما قيمة المال عند من لا يرى لهذه اللعبات قيمة . من ينشد مع ابن الرومى :

وكل ما تقضى من الأمور
تعـلة من يومنـا المذكور
ومتعـة من متع الغـرور !

الدنيا ! ما هى الدنيا ؟ زينة الليل سخرة النهار . يجلوها الظلام ويكسفها الصباح . ماشئت بالدجى من أنوار ساطعة ، وزخارف لامعة . وبالنهار مصـابيح عمياء ، وأدوات لا ماء ولا رواء . الدنيا ؟ ستار تمثيل حقير فى ذاته ، فأما ما تراه من جماله وروعته فانه باطل من تزوير الليل ، وخـدعة من تمويه الأنوار . وكذلك يفعل ليل الشباب بحقائر الحيـاة . الشباب بلور ما صادف شيئا الا كساه حلة خيوطها الألوان المختلفة كأنما نسجها المطر من أقواسه .

كان زمن يريني الأرض والسماء والروض والمـــاء تبهى فى برود السناء الإلهى . لقد عريت الكائنات من تلك الفتنة . ان البدر لينير ويكمل ، ويلتف حواليه فى صفاء السماء العارية . وان الورد ليحمر ويخجل ، ويبث أنفاسه فى أذن النسيم الواعيـــة . والماء يحلو ويجمل ، ويمثل النجـــوم الزاهيـــة . ولكن جمـــالا مخصوصا كان فيما مضى يتوج الكائنات قد ذهب الى حيث لا يرجع . لم تتغير الدنيا ولكن تغير الإنسان . وما تنكر الكون ولكن تنكر القلب . كان قلب الفتى سراجا منيرا يلف الوجود فى ضيائه ، فلما خبا القلب ذهب الضياء . كان عصر الصبا صباحا عليه الندى نظما ونثرا ، فلمـــا جاء الهجير جف النـــدى وغاض الصباح . أرأيت لو جلبنا عقـــــــد الملاذ هل نجلب الشباب ؟ ولو اشترينا كنز الترف هل نشترى قلب التصابى ؟ تلك لذة طواها الوقت ، نصيبك منهـــا الذكرى ، وأحلام اليقظة والمنام . غير أن الذهن فى تتبع المذكورات كالصائد المطارد الظباء . لا يستريح أو يقنصها . أما المذكورات فلا يصيدها الا الكاتب ينصب لها حبالة القلم . الذكرى جمرة فى الفؤاد راحة

الكاتب فى قذفها : فاذا رأيتنى أكتب فانها نفثة المصدور ؛ وما هى لمال ولا شهرة .

لماذا غنى الشاعر ؟ للذى غنى له البلبل ، لأنه لا يستطيع السكوت ولا يعرف الا الغناء . لماذا يكتب الكاتب ؟ ما بالك لا تسأل : لماذا يهطل السحاب ، وينمى الغرس ، وتهب الريح ، وتلدغ العقرب ؟ لأنها لا تعرف غير ذلك . لماذا تحرك القلم ؟ ليؤدى عن بعض الكتاب جزية يقتضيها ذلك السلطان القوى : الحب .

الشباب مشرق الحب . هل رأيت مطلع الشمس وما يحفه من بهجة الاشراق ، ورونق اللألأ ؟ .. كذلك لمشرق الحب طرب فى النفس ، وحلاوة الى الزوال مصيرها . هذا تأويل ما أوردناه فى مبدأ الكلام ، وسميناه « السناء الإلهى » و « الجمال المخصوص » . الحب يبزغ فى الشباب ، ويصعد فى سماء النفس ، ثم يأخذه الانحدار حتى يلمس الأفق ، ولكنه لا يغرب ، هو لا يغيب ولا يزول . الحب قديم سرمد ، هو سراج الحياة الذى لا يخبو ، قد يغيض على الزمن وهجه ، ويحمر بعد البياض سناؤه ..

ولكنه المنار الخـــــالد يهدى تلك السفينة الشـقية « الإنسان » فى مياه الحياة الصخرية ويكون ملاذها فى العناصر وعصمتها .

يا عماد الإنسان ، ومنبع القوة ، وحياة الحياة : أيها الحب لقد عرفتك وأنت فتى يطفىء النهار لحظك .. وشيخا آكل الشقاء شعاعك . فــــلا والله ما كنت فى الأولى أحب الينا منك فى الثانية . يا ملاك الوفاء قد ثبت لنا على حين خذلتنا سائر القرائن . مثلك ومثلنـا كرجل كان فى مأدبة فأخذه النوم بين تجاوب العيدان ، وتداعب الحسان ، فلما انتبه لم ير الا الظلمة والفراغ .. حتى اذا جال ببصره فى أنحاء المكان أبصر جمرا يريك شـــدة الحلك ، فلما أتاه وجد فيه دفئا وهداية وكفافا .

أيها الحب : رأيتك فى حالتيك فما تغير عنصرك .. وان كان ظاهرك قد تغـــير . كأنك الينبوع يتألق فى الضياء . ويعلوه الظلام فلا يضيره . أنت واحد .. وان تبدلت باللألاء ، ظل الهم والكآبة . كذلك الندى يكون مبسم الصباح وهو بذاته مدمع المساء .

يا حلية الكون ، وتاج الخليقة : أنت مجمل الأشياء . تضاعف ملاحة المليح ، وتترك بالقبيح ملاحة . تطرق الشاب فكأنه لم يعرف الشباب من قبل .. ويذوق الكبير فيك طعم الفتوة . مستلذ فى سبيلك الحزن والجوى ، مستعذب فيك ملح الدموع بشهادة القائل :

لا تسقنى ماء الملام فاننى
صبٌّ قد استعذبت ماء بكائى

حتى اليأس آفة الآفات .. منك يستفيد حلاوة .

أنت لذيذ فى الكبر .. وألذ منك ذكراك أيام تجلو عرائس الفرح وتدير الكئوس . إيه يا ساقى النعيم . لقد قلبت كتاب الحياة فما رأيت أمتع من صفحاتك .. انها أرباح العمر وميراث الشباب تلبسه الرجولة اكليلا .

كم ساعة أليمة أنكى من العقرب حولتها نحلة مجاجة بتذكر أيامك العذبة اذ لا تدع فى سبيلنا صغيرة ولا كبيرة الا وتنفث فيها من سحرك ما لا نكاد نكفيه .

أيها الساحر : لا أنسى حمياك فى الرأس اذ يثب الفؤاد لصوت إنسان ما .. اذا حضر فكلنا أعين ، ويغيب فكلنا تذكر . اذ نجعل الذاكرة مستودعا لكل ما تعلق بذلك الإنسان . اذ تنفث أيها الغرام فى النفس من لذيذ الأحاديث ما لا نجده عند صفوة الأصفياء حتى يعود الخلاء ، املأ بجميل المعانى :

وأخرج من بين البيوت لعلنى
أحدث عنك النفس يا ليل خاليا

إذ يجيل أحدنا البصر فلا يقع الا على ذلك الخيال الجميل ، لأن شمائل الغائب وألفاظه ليست بالرقم على الماء ، بل هى مكتوبة بحروف النار . وهى درس العاشق فى فحمة الظلام ، اذ يقبل علينا الحظ حتى يستصغر لنا السعادة فيحليها بمزاج من الخوف والألم . ولله ما أعيذب آلام الحب . انها لترجح بسائر الملاذ ، اذ لا شغل لنا الا المنى نقضى بها النهار . ونقول بالليل :

عللانى ، فان بيض الأمانى
فنيت . والظلام ليس بفانى

إذ يلتهب بنا المضجع ، ويغلى الذهن بالفكرة العالية . اذ نور القمر نشوة ، والزهر كلام ، والهواء غناء ، والنجوم شعرالسماء .. واذ ما عدا ذلك من تكاليف الحياة لغو وفضال . والناس كلهم صور متحركة .

يا مجـــدد الأشياء : هل خامرت إنسانا فلم تصقل صفائح الكون فى نظـــره ، وتبعث الرونق فى ديباجة الطبيعة ، وتنفخ الروح فى كل كائنة ، الى أن تقرأ فى جبين الزمان :

وجاء الزمان الطلق يختـــال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتـــــكلما

حينئذ يفهم الإنسان معانى الطير ، ويتصل ما بينه وبين الحمام ، فيشبه الذى قال :

لقد هتفت فى جنح ليل حمــامة
على فنن وهنـــا وإنى لنـــائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشــقا
لمـا سبقتنى بالبـكاء الحمـــائم

إذ يخيل الينا أن الشجر والكلأ يعقلان . وأن ألحاظ النرجس تحاول عندنا سرا فنميل عنها ثم نجنح ، لأن

الطبيعة عزاء العاشق وتعلته . يرى فيها شبابه الغائب .
كما قال مهيار :

وأعتنق الغصن الرطيب لقـــدها

وألثم ثغـر الـكاس أحسبه فاها

ماذا يريد العاشق المستهام من هـــذه الأشــجار والأمواه . أتراه توهم أنه ينتمى الى آل النبات لا الى ذرية آدم . أتراه يتلمس فى ذاك النسب الجديد حلقة مفقودة ، أم يتقاضى الشجر قسما من الماء والهواء ؟ إيه مجنون الهوى . أنت قصر عامر بجميل الصور ، ورخيم النغمات . تسحب الذيل زهوا ، وتعظم كأنك أمة فى واحد .. لقد نفذت الى مهجة الحياة ولمست نبضها . لم يبرق السرور ولا ذاب الحزن فى مثل عينك. ولا فتن الأرض والسماء مثـــل صوتك . ولا رأى النــاس كأنفاسك تبعث الشغف فى النسيم حتى يلهث جوى ويزفر وجدا .

أيها الحب : أنت كعبة الأفكار تنهب اليك القراطيس على مطايا اليراع . اليك حجت قصــائد : المجنون ، وعروة ، وجميل ، وداتتى ، وبترارك . لا لمــال كتبوا ولا شهرة .

الشهـــــرة

الشهرة ؟ كلمة أضل الناس معناها وتوهموها انتشار الاسم بين الجمهور الغافل الجـــــاهل ، وتلك شيمة الجمهور . ليست الشهرة ثناء القوم وإجلالهم ، وماهى بالصيحة الـــكاذبة . هى ليست بطنين ذلك الذباب المتهافت على مقـــاذر الصحف المسمى نفسه « أرباب الأفهام والأقلام » ليست هى بالنفخة الفارغة المشتراه بالمال ، وطورا بالغش والوقاحة . ولا هى بملق الصداقة والمحسوبية . انما الشهرة روح العظيم تحيا بعد موته فى عقل العالم ، ويتوارثها الجيل بعد الجيل :

كالحسام الجراز يبقى على الدهـ
ــر ، ويفنى فى كل عصر قـــرابه

الشهرة : سلطان الذهن على الذهن ، وإجلال الروح للروح إجلالا خالصا من شائبة الزمان والمكان ، مظهرا من أدران المحاباة والظلم . أو كما قال الحكيم الغربى : « هى الصوت الحادث من بحر الأفكار العالية ، اذا

انحدر من هضبة الماضى بين أودية المستقبل • وذاك صوت عميق » • لا يعرف نهاية كأنما يوسوس فى أذن القيامة • وكأنى بالرجل العظيم يسمع ذلك الصوت من أعماق المستقبل فيغنيه عن الصيت الكاذب وضوضائه • ومن أدرك نعمة الحق حصن السمع من لجب الباطل • طالب الشهرة الكاذبة يطلب الإجلال لشخصه فهـو مغرور • وباغى الشهرة الصادقة يريد الناس على تقديس الجمال والشرف فهو صـادق مخلص • هذا عاشق نفسه ، وذاك عاشق الحق • العظيم لا يهتم بذاته ، لأن له فى حقـائق الخلق مندوحة عن نفسه • وإذا امتـلأ ذهنك بشخصك فهل يسع شيئا غيرك ؟ العظيم غنى عن ثناء القوم لأنه أعلم بأمره منهم • فهو يتمثل : « لا يغلبن جهل الناس بك ، علمك بنفسـك » • الثناء : يغر الصغير ، ولكن الكبير الذى يلمح العظمة فى أعـلى مجاليها يقف خاشعا أمام تلك الدرجة الباذخة ، ويعرف حقارة عمله عند مساعى الفحـول ، فينجو من بلية الغرور والجهل • ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، ورأى مسافة طويلة بينه وبين الكمال فسعى نحوه ، لا كالذى :

يحسب الفضـــــل كله فى يديه

وهو منه على مدى الجـــــوزاء

وليس أكفل بنجاح العمل من حب العمل . فأما اذا لم يعمل المرء الا إرادة الشهرة فمـا أدناه من الزلل . وحبك الشيء مدعاة الى استثارة دفائنه ، واجتـــلاء غوامضه ، حتى اذا مثلته على الطرس أو اللوح حمل الى المشاهد كنه الأصل ، فبعث فى نفسه لذة الصدق وطرب الإجادة . فأما مباشر الفن الجميل ــ ولم يمحض له الحب ولا استغرقت عقله لذة الصناعة ــ فأحر به ألا يبلغ مزية الاتقـــان .. واذا كان الصـــانع لا تلذه مصنوعاته الا من حيث الثناء عليها والتصفيق لهـا . فماذا يجد الناس فيها من دواعى المدح والتقريظ ؟ هل يصح ألا يكون هناك سبب للثناء الا كون فلان هو الذى صنع تلك الصورة أو ذاك الكتاب ؟ اذن فمـا هو الاحكام والابداع وآيات الحسن والاحسان مما هو موقوف على عمق الاحساس الذى لا يكون الا مع الولع بالصناعة والاخلاص للعمل .

أتراك تحسب أن « رفائيل » كان وهو يرسم صوره الساحرة أكثر اشـــتغالا بأغراضه الشـــخصية منه

بمصنوعاته . أم أن صاحب « ألف ليلة » كان وهو يضع تلك الغرائب معنى الخاطر بمـا عسى أن يقـول الناس عن قصصه ، مهموم البال ، خشية ألا يحكم القوم بأنه أكبر محدث ؟ أتظن أن « ثكرى » كان فى أثناء كتابته « هنرى أزمند » يفكر الا فى ذلك البطل ، أو أن البحترى كان يفكر فى غير الإيوان حين وصفه فقال :

لو تراه ، علمت أن الليـــــالى
جعلت فيه مأتمـا بعـــــد عرس

عكست حظـه الليـــــالى وبات
المشترى فيه وهـو كوكب نحس

ليس يدرى أصــــنع إنس لجن
ســـكنوه ، أم صنع جن لإنس

عمرت للسرور دهرا ، فصـــارت
للتعـــزى رباعهم والتـأسى

فلهــا أن أعينهـــا بدموع
موقفات على الصبابة حبس

هل رأيت إنسانا يريد أن يعين الأطلال البالية بدموعه الا من أصبح لفرط الحب والحنان واتصال الألفة بينه

وبين الجماد يتوهم أن الإيوان الخرب له نفس تشعر ، تريحها المواساة وتؤلمها الجفوة . وهل تظن أن شاعر كهذا كانت تشغله شـــــخصياته عن موضوع وصفه وخياله ؟ حاش لله ، ما ذلك شـــأن الفحول الأكابر الشهرة الصادقة لا تصاد ولا تخطف ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضـــل العظيم . الشهرة كالحظ :

والحظ يؤتاه غـير طالبـــه
ويحـــرز الدر غير مجتلبـــه

من أراد أن يكبر فى عيون الناس فليصغر فى عين نفسه . ومن لا يزل يذكر نفسه كان خليقا أن تنساه الناس . والعظيم من وقرت به الثقة بالصيت الآجل عن الطيش وراء الصيحة العاجلة ، هو الذى لا يخشى على مآثره أن يطفىء الوقت ماءها ونضرتها . هو الذى يستطيع الصبر . هو الذى يلقى فى تربة الزمن بذور الخلود لتجنيها يد الأبد . هـــو الذى لا يبالى بسبق الضعاف الأصاغر ، ولا يقول شاكيا :

تقدمتنى أناس كان شوطهم
وراء خطـــوى إذا أمشى على مهل

هو العالم .. إن الملق والمدح الكاذب ، لا وزن له إزاء الحكم الراجح الذى يصــــدره المستقبل بشهادة الأجيال المتعاقبة . بل إن للصيت القديم من الجـلال والأبهـــــة ما هو أوقع فى النفس من جـدة الشهرة الحديثة . إن شيب الشهرة العتيقــــــة أروع فى عين الذهن من صقال الشهرة الجديدة .

الشهرة الصادقة : تشيد هيكلها على القبر وترفع نارها من رفات الفحول .

ولكن قل بين الأعاظم من بلغ فى احتقــار التقريظ والحمد ذاك المبلغ . وتلك مزية تتوقف على أمرين : الرسوخ فى العلم ، وســلامة الطبع من علة العلل ، وآفة الآفات : حب النفس . أما الرسوخ فى العلم : فمن شأنه تعريف المرء عجزه المبين أمام ظواهر الكون وبواطنه حتى يضرع ويذعن . وأما التجرد من حب الذات فإنه طهــور من أدناس الكبر والغرور والظلم والجهــالة مما يمتزج بالنفس البشرية امتزاجا لا يكاد يبرأ منه إنسان :

وعسير بلوغ هاتيك جـــــدا
تلك عليــا مراتب الأنبياء

وما حب الذات ورذائله الا كسائر الطباع : تضعف وتقوى • والتملق من أكبر مقوياتها • قال أحد الظرفاء (وذكر رجل متكبر) : « إنى لأستطيع تصيير ذاك المغرور مجنونا فى مدة شهر ؟ • قيل له : « وكيف ؟ »• قال : « بالتملق إليه » • ولعل هذا صحيح يؤيده ما يجىء فى تقارير الأطباء عن المستشفيات من أن أغلب الجنون يرجع الى الكبرياء •

وقد ذهب فريق من الفلاسفة الى أن التواضع هــو الحد الفاصل مابين العظمة الحقيقية والباطلة • بدليل أن التواضع هو من الإخلاص لروح الله فى أحقر المظاهر قبل أجلها حتى يعود الإنسان يقدس الحشرات والطوب كما يقدس السماء والأنبياء ، وذلك منتهى الإيمان • قال كولريج « إن أتقى الناس عند الله أحبهم للجماد والحيوان والإنسان » •

الكبرياء

الكبرياء من الكفر .. والمتكبر لا يرى الله والا فنيت فى كبرياء الخالق كبرياؤه . والله أهون أن ترفع فى عينه عين الا عمياء . وأعلى الناس أوضعهم فى مدرسة الإيمان . وما من الله على عبده بأجزل من التواضع . ألا ترى الينبوع الحقير فى الفلاة تحفة الخضرة. والبحر الزاخر لا تحفه الا الرمال القفرة . والعطر الذكى تفقده فى الدوحة وتلقاه فى الريحانة الضعيفة التى لا تكاد لولا العبق تبصرها :

وكذاك الربا الى سبل الأنواء
أدنى والحظ عند الوهاد

قل للمتكبر المترفع عن إخوانه : أتراك تستغنى عن أحقر الناس ؟ أئذا تكبرت على ذاك الإنسان هل تقدر على مجانبته البتة ؟ كلا إن تكبرك هذا تصريح مبين على أنك تطلب منه الإجلال لشخصك ، فأنت محتاج اليه

من هـذه الجهـة بلى ، ان الإنسـان منجـذب بالطبع الى سائر أخوته . والا فلماذا ترى الغنى النبيه يدأب فى اتخاذ الحاشية والتبع وربطهم الى نفسـه سواء بعلاقة الشكر أو المودة أو الإعجاب حتى بعـلاقة الخوف والكراهة ، إن هناك لجاذبية تدفع الفرد الى الامتزاج بالمجموع . وإن البغض والحسد وسهام الذم التى يصوبها أحدكم لأخيه ليست الا علاقات معكوسة. قال كارليل : « أيهـا المبغض أخاك الرامية بنوافـذ الهجاء ، أئذا كان أخوك طاحونا هل كنت متكلفا ذمه » كلا . أنت تذم أخاك ليذكرك ، فأنت كالقائل :

لئن سـاءنى أن نلتنى بمـذمة
فقد سرنى أنى خطـرت ببالك

تذم عدوك لكى تبيت شغله الشاغل، ولو كان طاحونا لما رميته بسهامك لأنه كان يستحقها ولا يذكرك .

إن حب الذات والولع بالظهور والصيت لمما يحتمل من العظماء الذين أصيبوا بذلك المرض ، ولكنه لايطاق من الأدعياء الجهلاء . بل ربما حسب العيب المذكور في أكابر الرجال نوعا من اللطائف المستلذة ، كما أن

قصر الأنف وكبر الشفتين قد يخال فى الوجه الجميل نوعا من الملاحة . ولكن حب الشهرة من السخفاء هو شجى الحلوق ، وقذى الأعين . أيها القـــارىء : إنى أحب دانتى وشكسبير ومسلما وابن المعتز لا أتبين فى أحدهم أثر الأثرة ، ولا أشم رائحة الغرام بالشهرة ، بل أكبر ما أرى فى شعرهم هو الشغف بموضوع الكلام والتفانى فى شخص الموصوف ، على أن شغفى بالشـــاعرين البحترى ، وبيرون . والكاتبين جولد سمث ، وروسو، لا يقل عن كلفى بالفئة الأولى، وإن كان هؤلاء الأخيرون لم يسلموا من حب الصيت ، بل إن هذا النقص وما نشأ عنه من عجيب الفعـــلات وغريب النوادر لمما يزيدنى حبا لهم وغراما . كان البحترى إذا أنشد شعره فى حضرة الملوك يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى ويهز رأسه ومنكبيه . ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : « أحسنت والله » . ثم يقبل على المستمعين . فيقـول : « مالكم لا تقـولون أحسنت ؟ » هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقـول مثـله .

وكان اللورد بيرون يدعى احتقار البشر ، ويفخر

بأنه مستقبل بنفسه رغمـــا من إدبار الصيت وغدرات الحظ . ولكن حيـاته الشعرية لا تشهد بتلك العـزة الشاردة والنفرة المستوحشة . ولا كان بيرون مثـل : وردذورث ، وملتون ، اللذين كانا يتصامان عن نقـد المعاصرين ويقابلان إزراءهم بأضعافه . وكان أحدهمـا يواصل نظم القصيدة وهو يعلم أنها ستقع من النقاد أسوأ موقع ، ويعلم كذلك :

« أنها أبقى على الزمن الباقى من الزمن »

وقد قال « بيرون » على لسان أحد أبطـاله فى موضوع الرفعة السياسية : « إنه من أراد هذه الرفعة فعليه أن يركـع » ثم جعـل ذلك علة انصرافه عن السياسة ، ولم يذكر أن صولته الشعرية ما كان لينالها لولا الركوع ، ولولا تضحية ذوقه الشخصى فى سبيل الذوق العام .

ليس فى شعراء العالم من يدانى « بيرون » فى تصوير الشقاء . هو سلطان البلاغة فى فنونها الثلاثة : بلاغة اليأس ، واحتقار الحياة ، وكراهة البشر . لم يدع فى أوتار البلاء وترا لم يقرعه ولا نغمة الا أجادها . ولبث

العام بعد العام والشهر إثر الشهر ينشر هذا المذهب « الحياة شقاء » . وأن جميع الشهوات الإنسانية انما هى سبيل الى الشقاء . اذا لم تنل تلك الشهوات ساقت الى شـقاء الخيبة . واذا نيلت أدت الى شـقاء الملل والسآمة . وجميع أبطاله أناس وصلوا الى غاية البلاء بطرق مختلفة ، وكلهم كاره للعيش ناقم عليه ، لا عون له على المضض والبلوى الا العزة المنيعة والجلد الأصم .. يذلل الهم بقـوة الإرادة ، ويقـاوم غضب الأرض والسماء مهما كانا .

وهكذا كان الشاعر «بيرون» فريسة لذلك الإحساس الأليم الذى نشأ من جملة أسباب : مرض فطرى فى الأعصاب ونكبات وقعيـة ، وعلل من الانهماك فى الشهوات الحسية . وأضف الى ذلك أن الإحساس المذكور كان يظهر بقصائده فى إضعاف قدره الحقيقى ، ولا سبب لذلك الا الادعاء البـاطل . حتى أصبح من المستحيل أن يكون الله قد خلق إنسانا يجمع الأوصاف التى أسندها الشاعر الى ذاته . فأما كون بيرون لم يكن كمـا وصف نفسه ، فذلك ما لا ريب فيه . إذ كيف يحتقر الناس من كان يطبـع كل عام ثلاثة دواوين أو

أربعة ليبلغ الناس فيها أنه يحتقرهم . بل كيف نصدق ما كان يدعيه من الاستغناء عن مواساة الناس ورحمتهم بعد نشره على أوربا قصيدة وداعه لزوجتـــــه ، ودعائه لولده . قال « بيرون » فى كتـــابه المسمى « تشيلد هارولد » ما معناه « ليس لهذا المعترك تأثير فى نفس لا تعبأ لا بلفحات الذم ولا بنفحات المدح » . ولكنا نراه رغما من ذلك يهتز طربا لإطراء أحد الأشراف على نظمـــه حينما كان يطبع الشـــــعر الذى ذكـــرنا الآن ترجمته .

أما « جولد سمث » فقد كان مزهوا فخورا ، تياها غيورا الى حد مستنكر مضحك . كان مرة جالسا مع نسوة انجليزيات فى إحدى أسواق هولاندة بمرأى من المارة . فلما أبصر الناس قد طربوا الى جمال رفيقاته ، أخذته الغيرة وخرج من بينهن مغضبا ، وهو يقول : « إن فى غير هذه البلاد جهات أجد فيها من يعجبون بى ويكبروني » . وكان مرة يتفرج مع أناس على لاعب يصل لعبة بأخرى وقد بهر القوم حذقه وبراعته فهتفوا إعجابا . عند ذلك احتدم « جولد سمث » غيرة وصاح مغتاظا : « ما أسخف هؤلاء الناس ، يعجبون من عمل

سهل لو تكلفته أنا لأبديت من الحـــذاقة والإحكام أضعاف ما رأوا » .

أما « روسو » فقد كان مولعا بالمدح والثناء . به ظمأ شديد الى الشهرة والصيت . أخذته إحدى السيدات الى التياترو ،بعد أن اشترط عليها أن يبقى مختفيا عن أبصــــار المتفرجين ، ولكن ستار اللوج سقط ، فبان روسو ولم يبد الحضور أدنى احتفال به . عند ذلك أظهر بطلنا أشد الغضب والأسف . ولبث طـول الليل منقبضا كئيبا . ولم يفه بغير كلمات الضجر والتبرم . وعلمت السيدة أن الذى أسخط روسو ليس هو رؤية الناس إياه ، بل عدم هتفهم له عند ما رأوه . وكذلك كان روسو منغص العيش ، مسموم الطبـع ، يتنازعه الشك ، والهرب من العـــالم ، والغيظ والهم . كان لا يستطيع عشرة الناس . زاره يوما ما رجل من ذوى الفضل والمروءة ، كان كثير التردد اليه، يبدى له أمحض الود والاحترام ، فوجد روسو يكاد يتميز من الغيظ من غير ما سبب ، ثم قال روسو لهـــذا الزائر وعيناه تلتهبان غضبا : « نعم ياسيدى . إنه أعرف ما جاء بك الآن . إنك أتيت لتنظر ما أكابده من البؤس والبلاء .

مرحبا ياسيدى . هذا مرجلى يغلى النار . انظر فيه تجد نصف رطل من اللحم . وبقلة . وثلاث بصلات . هذا كل ما عندى . فاذهب الى الناس وقل لهم ذلك اذا شئت . يا سيدى » . مثل هذه الحالة قد تعدت كل حد واستوجبت الأسف والرثاء . كنت ترى النـــاس لا يزالون يختلقون الأكاذيب على روسو طلبا للفكاهة واللهو . وكلما لج القـــوم فى الضحك لج الكاتب المذكور فى أفعاله العجيبة وحركاته الغـــريبة . كأنه المصارع المغلوب يتلوى من حدة الألم وقد أشرف على الهلاك ، والمتفرجون فرحون مستمتعون .

لا تحسبوا أن رقصى بينـــكم طربا
فالطـــير يرقص مذبوحا من الألم

هذه العيوب فى أعاظم الرجال تسرنا ، من حيث أنها تكثر بيننا وبينهم وجوه الشبه ، فكأنها أنساب وصلات تربطنا بتلك الأرواح الكبيرة . ولنا ، ولا شك فى ذلك، أحسن العزاء والسلوة . نحن عجزة مرضى أبعد ما نكون من رتبة الكمال . فاذا علمنا أن النقص والعيب قسمة عامة لم يسلم منها ولا الأرجحون أحلاما ، والأوفرون

مروءة ، كان لذلك روحا تحت أحشـائنا ، وقرة على الأكبار . وسرنا أن نقول : « الكمال لله وحدة ؟ .

الولع يا نصيب من العجب والكبرياء . وليس إنسان كانت لذة الكبرياء عنـده أكثر من آلامهـا إلا أحمق ضالا . الكبرياء والتسامى الى الظهور هما فى مذهبى خروج من أكنان الراحة والهنـاء الى محاسر التعب والعناء . بروز من ظـلال الدعة والأمن الى مضاحى النصب والخوف . واذا كان هناك شيء يحسد عليـه الصعلوك فتلك نعمة الخمول . الخمول من الحرية . والنباهة من الرق . صاحب الخمول يسرح من خموله فى روض أفيح ، ويسبح منه فى جو أفسح . يفعل مايريد لا رصد ولا رقيب ، ولا حرج ولا تثريب . أليس هو كالطائر يذرع فراسخ السماء . وكالحوت يقطع حوم الماء . أليس فى قدرته الوقوع على كل غصن وفنن ، والنفاذ الى كل مكمن وكن . أليس فى طاقته مشاركة النبيه النبيل فى ملاهيـه ومسراته ، ثم الانفراد دونه بسائر الخير واللذة . الخامل يجلس اذا أراد فى شبرد أو سافوى . لكن البيه لا يمكنه الجلوس على قهـوة كتكوت ، ولا عند مصطفى الحلوانى . على أن دكان

مصطفى المذكور مما يود الجلوس عليها أكابر الروائيين أمثال : إميل زولا ، وثكرى ، ودكنز ؛ لأنهم يرون فيها من الأخلاق والعادات ما هو أعجب وأنوع مما يكون فى الأندية الفاخرة مثل كونتننتال وسميراميس . ولكن أكثر الناس لا يفقهون ، هم قصار النظر ضيقو الفكر ، يحصرون العقل والإرادة فى نقطة من الحياة كوظيفة أو رتبة ، لا يبصرون وراءها شيئا . يرون أنها لباب الدنيا وكل ما عداها قشور . إنها الصريح وسائر الأشياء رغوة . إنها الذهب وغيرها الرصاص . أولئك السفهاء يغمضون أجفانهم فى وجوه الخلق ترفعا وكبرا كأنهم يرون أن الخليقة ستتألم من إعراضهم . والخلائق أعز شأنا وأعلى . يحسبون أن العالم سيجد فى انصرافهم خسرا وحرمانا . وهم الخاسرون المحرومون وإن لم يفقهوا . أولئك أحق بالرحمة والرثاء وكذلك يرحم الأبله والسجين والأعمى .

يظن أولئك العميان أن خير الحياة رهن بمراكزهم وسبلهم ، أو أنهم يجلسون من طبقات العالم « فى البريمو » وأن الله يبذل جل اهتمامه بشئونهم كأنه عز شأنه مأجور على ذلك ، فهو يبالغ كل المبالغة فى ترفيه

عيشهم وتهذيبه ، ناسيا عباده الفقراء الخاملين . خابت ظنون الجهلة الأغبياء . بل الله أعدل من ذلك . وماربك بظلام للعبيد .

ان الطبيعـــة العادلة قد أباحت جميع أبنائها على السواء مناعمها ، لم تحمل الانسان فى التماس هـــذه النعم الا وسعه . أجل ذلك الكون مفعم بالنعم ،فياض لا يحوج الى دلو ولا رشاء ، بل تغرف الكف منـه ويشرب الفم . ليس العيش بالصعب المنيع ولكنـه غنيمة باردة . غير أن الإنسان لحماقته وزهوه ظن أنه قادر على تحسين الطبيعة وتنقيحها ليمتـــاز بذلك عن الفقراء الصغار . يترك لهم العيشة الفطرية الساذجة ، ويسمو عليهم بالعيش الصناعى المركب . ولكن الطبيعة أمكر وأكيد ، فلمـا راكم عليها المترف المغتر أصناف الزخارف والتحف اذ بها قد برزت للفقـــير فى حسنها الطبيعى أملح منها تحت زخارف المترف كالحسناء يغض من جمالها كثرة الحلى .

كل أجزاء الكون ، سواء فى امتلائهـــا بالطرائف والمباهج ، ليس يمتاز جانب بالثروة عن جانب . الكون جميل كله ، بل الجمال هو خالق الكون . لكل دائرة

من المجتمع مزاياها وخصائصها وكل قوم بما لديهم فرحون • الإنسان إنسان مهما تنوعت أشكاله وأزياؤه• تصور أن ملكا من الملوك وأعوانه من الأمراء تجردوا بغته (كما قال كارليل) من ثيابهم وقاموا عراة حاسرين• هل تستطيع وهم على هذه الحالة أن تجمع بينهم وبين فكرة الملك والأبهة • كلا • انما العظمة والروعة فى الملابس والأزياء لا فى الأبدان والألوان • الإنســـان إنسان برغم التمويه والتزوير • فلا تحسب أنك خاسر فى عشرة الصعاليك ماكنت مفيدة من عشرة الأمراء ، بل ربما كنت مع المســاكين أربح صــفقة وأرجح سهما • اجلس مع القـــــوم الضعاف تعجبك آدابهم وكريم سجاياهم وتلف تحت هذه الظواهر الفقيرة نفوسا غنية كالعود يجرى الغذاء الحلو تحت قشرة الخشن المنكر • وتسمع الحكمة أثر الحكمة ، والعظـــة تلو العظة • وتستلذ منهم النكت والفكاهات وتعلم أن العقل الأكبر موزع بالعدل بين الطبقات والدوائر • وأن الله فى كل مكان • تسمع أن مهرجانا سيقام لعيد إيطالى فمـــا أسرعك الى ذلك المحتفل • ألا تشهد الأعراس الوطنية والأسمار البلدية إنها أحفل أنسا وأحشد متاعا •

قاتل الله الزهو وضيق النظر •• يحرمان المرء أكثر الخير واللذة • يظـل أحدهم ولا شاغل له إلا شخصه وذاتياته •• اذا أحرز فائدة من وظيفة أو جاه •• لم يرح ذهنه طرفة عين من التفكير فى تلك النعمة • يعين أحدهم وكيلا أو ناظرا لمدرسة فلا تفارق دماغه فكرة هذه الوظيفة لحظـة واحدة • يجلس للغـــداء وكله علم وشعور بأنه « جناب الناظر » • ويذهب الى بيت الأدب وهو ممتلىء بذلك الشعور ، ويهب من النوم على هذه الحــالة • بل إنه ليجالس إخوان الصفاء واللهو وفكرة الوظيفة تستبد فى رأسه وتضرب الأطناب • أى مناسبة أيها البارد الثقيل ، بين ما أنت فيه من اللهــو والمزاح ، وبين « مدرستك وما تحــوى من التخت والحبر الزفر والبوص وأمثالهــا من أدوات التدريس وأدوات التنغيص » ، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله • إنى أعرف أناسا لو أنهم رزقوا وظيفة الناظر المذكور لم تشغل أذهانهم فكرة الوظيفة الا اذا شغلتها غرائب الأفكار التى لا تخطر لإنسان على بال • مثل : « لأى سبب كان الرمل أصفر ولم يكن بنفسجيا » و « كم قرش فى جيب الدباغ » و « البليلة حلوة » و « الأرض

كروية » و « البحر زاد » إلخ . إلخ . سل الموظف الصغير أو الكبير : هل تقاس درجته مهما بلغ بدرجة ابن المعتز ولى عهد الخلافة العباسية فى عنفوان عزها ؟ دعه يتأمل ماذا قال ذلك الشاعر الأكبر فى وصف نفسه وبراءتها من الرتبة والجاه ، وانحيازها الى التبسط والتسهل ، قال :

قليل هموم القلب إلا للذة
ينعم نفسا آذنت بالتنقل
فان تطلبه تقتنصه بحانة
والا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خلافة
ولا قائلا من يعزلون ومن يلى
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة
يناظر فى تفضيل عثمان أو على

أسعد السعداء من عاش بين الناس كأنه ليس منهم . كأن الجمهور لا يشعر به وهو لا يود سوى ذلك ، كأنه متفرج صامت ينظر معرض الحياة الأعظم ولا ينظر ، تلذه الشئون والحوادث ولا تستميله الى ملابستها .

والانغماس فى حومتها . كأنه روح نقية تسلك سبيلها وهى ترمق العالم بنظرة التدبر والتفكير فى سكينة وزهد وتورع . ترثى لبؤسى الإنسان وتفرح بنعماه وتصفح عن سيئاته . ولكنها لا تلتمس التفات الجمهور نحوها ولا اهتمامه بأمرها . الرجل الذى ذلك شأنه ينظر الى الدنيا من ثقوب مخبأة ، ولا يحب أن يخرج اليها . يسمع الجلبة وهو ساكت . يقرأ السحاب والنجوم ويرقب كر الفصول واختلاف المشاهد . نضرة الربيع ، وثروة الخريف . ووقدة الحرور ، وقسوة الشتاء ، يستاف عبق النسائم . ويستمع هديل الحمائم . يعكف على صفحات كتاب ، أو يصرف الوقت فى المحاورة والخطاب . أو يحلل الساعات الى دقائق فى لذيذ الذكر ومعسول المنى . يظل وهو مشغول بكل شىء يراه إلا نفسه . يستطيب ذاك الكتاب ولا يهمه أن يكون مؤلفا . ويستملح تلك الصورة ولا يعنيه أن يصير مصورا ، لا يقتل نفسه حرصا على الشىء ليس كفؤا له ، بل يتمثل :

اذا لم تستطع شيئا فدعه

وجاوزه الى ما تستطيع

بل إنه فى الحقيقـــة لا يطلب شيئا ولا يكاد يعلم ما يقدر عليه مما لا يطيقه . هو فى حرية الهواء واستقلال الريح .. وما دام كذلك فهو فى خفض ولين .. ولكن له الويل والنكد اذا شرع يتساءل عن مكانته فى أعين الناس . ذلك السبيل الوعر والمركب الخشن ، والمرتع الوخيم لاجنى فيه الا الخيبة والندم . اذ تعود أوقات الرجل وأفكاره وعواطفه رهنا بأهواء الغير وأغراضهم .. ويصبح المرء لا يرى الأشياء كما هى ، بل ينظر اليها من وجهة أنها ذرائع الى غاياته وشهواته ، فيتحول طبعه عن الصراحة والفطـــــــــرة الى الرياء والتلون .. ويصبح لا تهمه تقلبات الأحوال الا من حيث أن له يدا فى ذلك . وكذلك يقصر أشعة بصيرته عن حقـــائق الوجود ليحصرها فى شخصه الضئيل ، أو ليستطلع بها .. هل الناس يسمون بالأبصار اليه أو لا يفعلون .

صاحب الهدية

ولكن ما معنى ذلك التنقل من غرض الى غرض . والإضافة فى الكلام ، وصاحب الهدية ينتظر كلمة فى موضوع الإهـداء الذى من أجله فتحنـا هـذا الباب .

صاح : إن اضطرنا الجـد الى ايقافك الآن بباب الكتاب ، فبما دفعك الهزل سالفا على ايقافنا ببابك . سيان نحن فى ذلك وما نحن بالسواء فيما تبع . كنت تقريبا بعد طول الرقبة ردا قبيحا ولقاء أقبح . ونقريك الآن عذرا جميلا وقولا أجمل .

لا أكذب الله أن لذكرك أحسن الأثر فى كتابتى . لا ازال كسائر الناس إذا كتبت ، حتى إذا جاء ذكرك رقصت يدى ، وغنى اليراع ، واخضرت الورقة ، وتفتح فيها الزهر الجنى :

وضمن صـــــدرها ما لم تضمن
صدور الغـــــانيات من الحـــلى

وكانت قطعة نثر كأنها قطعة بستان (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين) .

ياللرجال : لسخر الحظ . وهزء القضاء « أيصبح أطرب الناس اليك وأسخاهم لك ، لا يملك مما ينزلك فيه الا بضع صفحات من كتاب وهو المتمثل :

مســـتقلا لك الديار وإن كا
ن نجـــوما آخر هـــذا البناء

أذلك كل حظنا من القصور والعقد ؟ لا جرم فأقل منه نصيبنا منك ، وما ذاك إلا خيال . عجبا للزمان ! يحرمنا حتى اسمك لا نستطيع ذكره . إنا مددنا إليك القلم فلم يجن منك سوى كاف الخطاب . ولو مددنا غيره لكان غير الكاف نصيبنا . ولكن أبى الله . شتان بين صنيعنا وصنيعك . محوتنا من ذاكرتك وأثبتناك فى ذاكرة الزمن . ما رأى النـــاس مثلك يشترى الخلود بسيئاته .

نراك بعين الشـــوق ولا نود أن نراك بالعـــين .

ولا نقول مع مهيار :

يراها بعين الشوق قلبى على النوى
فيحظى ولــكن من لعينى برؤياها

قد لقينا من لذة البصر ماصرفنا الى لذة العقل . فاذا رأيتنا فقراء فى الحس فما نحن بفقراء فى الوجدان ، جثماننا فى وحشة ، ونفسنا فى أنس وعرس .

أنت فى مرأى العقل أطهر وأنقى منك فى مرأى البصر . تنزل من النفس فى متحف يغص بطــرائق الحقيقة والخيال ، من شعر كريم ونثر ثمين ، وإبطــال من عالم التاريخ والوهم . تنزل بين « هنيبال » و « هاملت » ، وبين « شيلى » و « روميو » . وهــذه أحلى وأجمل من المنظورات بالعين . هى نور بلا حر ، وشـــهد بلا إبر ، وسمر بلا سهر ، وزاد المسافر ، وحديث المنفرد ، وسلوة المهموم . هى المتاع الخالد يعلو على طوارىء الحدثان ، قد خرج من سلطة الوقت ، وسلطان البلى .

لا صلة بيننا ولا شبه . واذا كان هناك فردان يجب أن لا يلتقيا : فهما نحن . ولكن الظــــروف جمعتنا . وما خلق الله أسوأ من الظروف ولا أفسد ، ولا أخرق

ولا أجن • الظروف : أمهـات الخطأ ، وأصول الشر والتلف •

جمعتنا وإياك ظروف لا كسائر الظـروف ، ولكنها خداعة غرارة ، أعانهـــا الضحك ، والنسيم ، والحر ، والجنون ، والقمر •• فأرتنا التراب تبر! •

كنا نراك حينذاك فنبهت • نلذك ولا نفهمـك كأنك الموسيقى ، كأن بنا سحر ، والآن نبصرك فنفهمك • قد حللنا اللغز ، وما حللنا عقدة السحر • ولو كنا حللناها لما كتبنا كل هذا لنعلمك أنا غنيون عنك •

ينظر أحـدكم لأحد الناس فيظنه نسيج وحده ، ثم يخجل أن يقارنه إلا بالشفق ، والزهر ، وقطر الغمام ، وسجع الحمام ، ونجم الصباح والفجـــر •• وهبوب النسيم •• وبهجة الربيع •• كأن لهذا الفرد جمالا فردته به الطبيعة دون أمثاله •

إن هذا إلا زور وباطل •• ذلك الجمال العجيب ليس بكائن فى شخص من تهوى •• ولا هو حقيقة •• إنمـا هو حلم يخلعه خيالك على صورة كسائر الصور •• ذلك الجمـال الذى تهلك لأجله •• هو ملكك •• هو

جمال ذهنك معكوسا على شخص صاحبك..ما صاحبك بجميل إنما الجميل نفسك . فأعرض عن الكاذب المغرور ، وأقبل على نفسك .

صاح : بلغنا أنك تلتمسنا .. لا تنافق .. نحن أعلم بلمساتك . لاحظ لأحدنا فى صاحبه :

كلانا غنى عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا

حفظنا الله منك . إنى ألقاك فكأنما أبصر خمسة أعوام من العذاب والغيظ والجزع لا عتاب ولا حساب. فاذهب عفا الله عنك لا تثريب عليك اليوم .. أنت لا تشعر وليس على غير الشاعر حرج .

لا يزال المذنب مرجو التوبة ما دام له ضمير .. الضمير عين النفس ، فاذا كانت النفس عمياء فكيف توقفها على مواطن الخطأ والصواب . الحياة هى الضمير . أنت لا تعرف ذلك لأنك لا تعرف الضمير ، بل كل ما تعلم هو أن الحياة نفاق وأنها خداع وغش . أنت تبرق لنا بالأمل الخلب ، وتهدينا النعمة السرابية . أليس فى ذلك الغش راحة لنا وحيرة ؟ نعم يامولى النعم،

جزاك الله أكرم الجزاء . أفخر ماشئت بصنيعك فينا ، وإذا قالوا لك : « أتفخر بالغش ؟ » فاتل عليهم قول كارليل : « ما أعظم الغش وأجزل فوائده . إنه يستر عورات الحياة ويزخرف خبائثها ، ولولاه لانكشفت الحقيقة فانتحر الناس جزعا ويأسا » .

لا يثقلن عليك قولي فما قصدت إيذاءك لأني ما غضبت لسيئاتك ولا لسيئات غيرك . خاب من حاول مضرتي وأنا الذي يربح من الألم ما لا يربح من اللذة . أنا كالنحلة تجمع بين أطراف البلاد لا تدع فى الزهر طيبة ولا مسمومة إلا وتأخذ منها ، ثم لا تفيد من ذلك سوى الشهد وحلاوته . أنا المتمثل قول ابن حزم : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق . وإن آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشدو أكثر من اغتباطه بمدحهم إياه » .
أنا المتمثل قول أبى تمام :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقول ملتون : « أحسن الناس عملا أصبرهم على

البلاء » وقول شيلي : « علمتنا الأحزان نظم القصيد ، فأهدينا للناس فى نغمات الشعر ما تلقيناه على ضربات الألم والشقاء » أنا المتمثل قول القائل : « ماذا يعلم الذى لم يتألم » . وقول البحترى :

وقد هذبتك الحادثات وربما
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

أنا القائل : إن فى الفضائل ما لا يظهره سوى الألم ، كالنار يخرجها القدح ، والطيب يذيعه السحق . أنا الذى طالما استدعى الحزن ونعم به كما ينعم المنهوك بالوسن ، والمشوق بالشائق . بل أيها الناس ! إن فى اليأس نفسه لحياة قوية ، كما أن فى السم قوة حية . اليأس حى يغذوه البغض والغضب . والحياة تسكن للشقاء وتلبس له ثوبه ملاءمة ، فهى كالعسل الذى يخرج فى أرض مرة بجزيرة سردينيا .. مرارته أكثر من حلاوته .

صاح : إن لذائذ الحياة أكثر من أن يضرها فقدك . كذلك فى بقية الزهر عزاء عن النرجس .. اغمض عينيك ما استطعت ، إن فى غيرها من العيون ما يشغلنا الى الأبد . ضلة للمرء يحصر روحه فى فرد لا يرى فى

الخليقة غيره . لقد أنكر قدرة الله إلا فى ذلك الفرد . قتل الإنسان ما أكفره .

صاح : الله بيننا وبينك . نحن ثلاثة لا نخاف القضاء مهما لؤم . لا تقم لنا المشكلات فى حياة لا قيمة لها عندنا .. سواء علينا أنقضيها مع السلطان على عرشه ، أم مع الشحاذ فى عشه بين البررة الأخيار، أم بين الفجرة الأشرار ، على كرسى القضاء أمام القوانين والنصوص ، أم فى غيابة السجن وسط القتلة واللصوص . الحياة ساعات معدودات قد عزمنا على صرفها فى الضحك والمزاح ، ولو سقطت السماء على الأرض ، منشدين فى نفس واحد :

« والمزاح الجد إن فكرت ، والجد المزاح » .

الحياة رواية مضحكة مبكية ، ونحن الثلاثة ممثلون، نمثل الدور المحزن ولا نحزن إلا بقدر ما يحزن الشيخ إذا مثل روميو ، أو كما يحزن الحانوتى فى الجنازة . وإذا مثلنا الدور الهزلى ضحكنا من الناظرين أكثر مما يضحكون منا ، حتى اذا مثلنا دور الجنون كنا أعقل من المتفرجين .

اذا سمنت بالمـال جيوبنـا فنحن مسرورون ، واذا هزلهـا الإفلاس فنحن أشد سرورا لأن أحدنا لا يرى الثروة فى الكيس ، بل يراها فى عين صاحبه :

خليلى إن الجوع إن جار والظمـا
فزادى فى وجهيـكما وشرابى (١)

إذا أقبلت (٢) رفعنا الغناء ، وان أدبرت طرنا فى النغمة الى جواب الجواب ، لأن الغناء اذا لم ينفع فانه لا يضر •

نحن كالنهر السيال ، يصـادف السهل الدهاس فيجرى ، ويجىء على المكان الصخرى فيرقص • كذلك نحن نصادف الرجل الدمث فنلين ، ويلقـانا الغليظ الصعب فتزداد لينا وثب مرحا •• نروى الرقيق الطرى •• وننحت الفظ الحجرى ، وننشر أينما سرنا حيـاة وأنسا • نحن كالهواء يهب فى العمران ويشـتد فى الخراب هبوبا •• نحن كالنار تسطع وسط الجماهير • ولا يقل فى المكان القفر نورها • خليلى لا أرى أبلغ فى وصفنا من قول ابن الرومى •

---

(١) هذا البيت للمؤلف •
(٢) اعنى الدنيا •

وخلين تما بى ثلاثة أخوة

جسومهم شتى وأرواحهم معا

مطيعين أهــواء توافت على هوى

فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا

تجــلى عيون الناظرين فجأة

لنا منظرا مروى من الحسن مشبعا

إذا ما دلفنـــا مقبلين لمجلس

طلعنا جميعا لا نغـــــادر مطلعـــا

كمنطقة الجـــوزاء لاحت بسحرة

بعقب غمــــــام لائح ثم أقشعا

إذا ما دعا منـــــا خليل خليله :

بأفديك .. لبـــاه مجيبا فأسرعا

وإن هو ناداه ســــــحيرا لدلجة

تنبه نبهــان الفـــــؤاد سرعرعا

كأن له فى كل عضــــو ومفصــل

وجارحة قلبـــــا من الجمر أصمعا

فشمر للادلاج حتى كأنمـــــــا

تلف به الأرواح ســــمعا سمعمعا

بنو خبلة لم يفسد الدهر بينهم
ولا طمع الواشون فى ذاك مطمعا

تلك شيمتنا مع الزمن ، نلعب به سواء جد أو لعب
.. كأنه الغادة الحلوة غضبها ألذ من رضائها ..
وعبوسها أطرب من ابتسامها :

ما ساءنى إعراضها عنى ، ولكن سرنى
سالفتاها عوض من كل شىء حسن

الــدنـيــا

... الدنيا أحقر من أن نحرك لهـــا ساكنا . هى كالطفل الصغير تضــحك فنداعبهــا ، وتغضب وتصيح فنتركها حتى تذل وتخضع .

ما أسخف البعض يخرجهم الله الى هـــذا الوجود ليقضوا فيه بضعة أيام فيضيعوا نصفها فى تقدير منازلهم فى نفوس الغــير . ومقـــاماتهم فى المجتمع (تبا لهم ولمقاماتهم) ألم يقرءوا (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) ويضيعون النصف الآخر فى فحص أحوال الناس كأن الله أرسلهم رقباء على خلقه . إن هو إلا فضول منهم ووقاحة . يقــولون : « هذا وزير » ما أرفعه ، و « ذاك خفير » ما أحطه ، وما علموا أن الخفـــير قد يحفظ من أعراض الناس وكرامتهم ما يضيعه الوزير . يقولون : هذا رئيس ، ما أجله . وذاك صعلوك يبيع الفاكهة . كأنهم لا يعلمون أن رطلى عنب أشهى وأحلى من رطلى خســة ، ولؤم ، وسماجة .

أيها العظيم الشامخ بأنفه ! اذا شــئت أن يحييك الكناس بقلنسوته الرثة فحيه أنت أولا . لا ترد ذاك الفقير على إحناء الرأس لك ، انه رأس إنسان مثلك بل أشرف منك ، ليس لغير الله ينحنى . فاخجل من الله ، وقل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

أيها المتكبر الوارم من الكبر ! أتريد أن تثنى مليون رقبة إجلالا لك وأنت لا شيء . أتدرى ما أنت به أحق. أنت احق بمليون قدم تدوس عنقك الأصور المعوج .

أيها الغنى المترف ! تظهر الأسف المدنس بالاحتقار ، إذا أبصرت الفقير المعوز تظنه لا يعـــرف الهنـــاء والسعادة . ما أغباك وما أغفلك . السعادة فى طبيعة الإنسان ومزاجه ، وليست هى فى الكهرباء ،والدبابيس، والشوك ، والكرت بوستال . كلا أيها المغفل . ليست الأشربة الملونة فى أكواب الذهب بأبرد على الحشاء من الماء فى الصفيح والفخار ، ولا الخوان يئن تحت أثقاله بامرأ من الأكلة ذات القرشين ، ولا بساط الديباج بأوثر من بساط الثرى . وأن الطبيعة الـكريمة لأعطف على

كوخ الفلاح منها على قصر المترف وأسخى يدا للصعلوك منها للأمير .

إن أسعد الناس عندى رجلان : رجل وقفت الظروف بينه وبين الشهوات فكفى مئونة التمنى والتشوف ، وأعتق من رق المطامع أخدعه ، فعاش مطمئن البال مستريحا . ومن هذا القبيل كثير من الفلاحين وصغار الباعة ، والصناع ، والأزهريين ، وفقهاء الكتاتيب ، ومدرسى العربية بالمدارس . ولكتاب الله أثر عظيم فى صيانة الكثير من هؤلاء « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . والرجل الثانى : رجل قوى النفس ، راجح الحجى . لم تحل الظروف بينه وبين الشهوات ، فباشرها ، لا مباشرة الأسير للأغلال ، بل مباشرة الأسد الهصور للكرات النحاسية ، يلهو بها ويلعب ، ويقذفها ذات اليمين وذات اليسار ، فاذا منعت منه لم يبك ، ولم يعول عويل الطفل العاجز ، بل تناساها كأن لم تكن . وأحسن مثال على ذلك « نابليون الأول » . خسر الدنيا فكأنه لم يخسر الا دورا فى البليارد أو الورق . لا فرق مطلقا بين أسد « أوسترلتز » القابض بأظفاره على أعنة أوربا ، وبين أسد « سانت هلينا » المحبوس فى تلك

الجزيرة في قفص صخري قضبانه العباب الزاخر والموج المتلاطم .

معذرة يا صاحب الإهداء . قد شغلتنا عنك كلمات في سبيل الحياة فحرمتنا مخاطبتك على لسان القلم ، وتلك من خير متاعنا ، وكل ما بقي لنا منك . إنا لنجلد على الفراق وتتجلد ، وتتسلى ببدائع الله ، وتتخذ منك بدلا . ونكاد ننساك . ولكن قاتل الله الأحلام ، إنها تنكأ القرح ، وتدمي الجرح . إلا ربما حلم فزعت منه ، أسمع صوتك ، وألمس يدك . ثم أنظر على الوسادة قطرة تلمع ، لا أعلم ، أمن الندى ، أم من الجفون . الله أعلم بمصدرها .

هذه يا أخي بضع كلمات أهديتها لك ، لا تسلم من الحر والمرارة . لا تلمني فذاك الثمر من ذلك البذر :

وعزيز على عضيك باللو
م ، ولكن أصبت صدري بداء
أنت أوغرت صدر خلك فاعذر
ه على النفث إنه كالدواء
إن تكن لفحة أصابتك من عذ
لي ، فمما قدحت في الأحشاء

الطبيعة

أيكم أخرجه الضجر والكرب من بين أحشاء مدينة مزدحمة الى الفضاء الفسيح ، حيث يرفل الكون فى أبهج حلله ، وتلبس الدنيا أكمل زينتها ، وترنو اليه الكائنات بعيون البشر والطلاقة . أيكم أبصر ذلك فلم يشعر بوجود روح فى هذا المشهد الجليل ، وعاطفة رحمة وحنو ، تعطف كل جزء من أجزائه على إنسان أضر به الحزن فاستجار بالطبيعة على إزالة شجوه وشجنه . إن فى صفاء السماء والماء والهواء للذة كبيرة للذى طلب الصفاء فى قلوب البشر فلم يجده .. إن فى تفجر الينابيع وتدفق الأنهار لشفاء للنفس التى آلمها الجمود من قلوب بنى آدم .. إن فى ابتسامات ذلك الزهر الضاحك لقرة للأعين التى ساءها من وجوه البشر العبوس والتقطيب . فإن وقعت على ثغر ضاحك فهى غالبا ضحكة السخر والاستهزاء ، أليس فى هذه النجوم اللامعة من نظرات الود والرحمة مايصل حبل الرجاء الذى

يقطعه من الآدميين نظرات الحقد والبغضاء .. أليس في جميع ذلك ما يمكن من قلوبنا حب الطبيعة حتى نولع بها ولوع الصب بالحبيب ، وهل يعجب أحدكم بعد ذلك من إنسان يرى فى المناظر الطبيعية أصحابا تعاشر وتحادث ، ويعتقد أنه ليس من زهرة فى الروض إلا وتقر عينا بما يحدق بها وتلتذ بالنسيم الذى يلاعبها التذاذ الإنسان بنعيم الحياة .

عاشق الطبيعة يكاد يسمع فى حفيف الأشجار إغراء بترك المدن وضجيجها وقضاء بقية عمره معها . ثم يحمى خياله حتى تعود الأشجار تلمع فى عينه لمعان الجمر المتقد ، ثم تجده يتهافت على بدائع الله تهافت الفراش على النار . ويوغل فى أعماق الروض وبصره يلتهم مناظره التهام العطشان قطرات الماء ، وتتعاقب على ذهنه من الأفكار التى تبعثها هذه البدائع ما يمحو من ذاكرته البلد وأهلها ، فيخيل له أنه ولد لساعته .

هذه مناعم تشفى القلوب وتحيى النفوس .. هذه ملاذ تنبعث لنا من المادة التى خلقنا منها . هذه مناعم الأرض التى منها نصدر وإليها نعود . نعم لا غنى لنا عن التراب وملاذه . وهل عجيب أن يحن الإنسان الى

وطنه وتهفو النفس الى منبتها .. ان التراب ليلذ أعيننا كما يلذ الماء الحلق اليابس . فقل فى التراب إذا شئت : « هذا ماء يابس » . هذا التراب ينعش أجسامنا كما تنعش النار المقرور ، فقل فى التراب اذا شئت : « هذا لهيب بارد » .

يا أيهـــــا الناس ! أنتم أبناء الطبيعة فلا تعقوها بالانصراف عنها الى صغائر العيشة وأباطيلها وترهاتها.. ألا يرى أحدكم فى وجه الطبيعة ، إذا عاد اليها بعـــد هجرة ، علائم العتاب ودلائل الأسف على ما جنى من هجرتها .. فاتقوا أيها الناس غضب الطبيعة إنه مؤلم للنفس الحساسة ، وتعهدوا الأصل الذى منه تتشعبون والينبوع الذى منه تفيضون .

أرى الناس يكبرون ماتصـــنع لهم أيدى البشر من الزخارف والحلى فيلهون به عن بدائع الله ومصنوعاته، فهل بعد ذلك غرور وضلال ! .. سل الشاعر الذى يجالس الملوك فى القصور ذات الحلى والزخارف : لأى شيء يفر من تلك القصور الى قصور الله التى شادها من الغصون ذات الزهر والأكمام ، وجعـــل لها من السماء ذات المصابيح سقوفا ، ومن المياه ذات الخرير

صحونا ؟ يخترك : أن مصنوعات البشر مهما كبرت فى أبصار ذوى النفوس الصغيرة فانها حقيرة فى الأعين التى تنظر عن أنفس عظيمـــة ••• وكم من عاشق للطبيعة احتجب عنها لحظة ، ثم عاد اليها هائم القلب ، فألقى بنفسه بين ذراعيها ، وغاب فى أثناء جمالها ، وكان القمر ساطعا ، فانغمس فى طوفان نوره ، وجعل يغسل فى ذاك الضياء العجيب يديه •• ويقلب مقلتيه فى أمواجه ، ويصغى الى نغمات النسيم الذى يترك الأغصان عيدانا رنانة •

إن الشعراء الفحـول ، من كل أمة ، لم يبلغوا من مراتب الشعر ما بلغوا ، حتى اسـتعانوا بالطبيعة • فاتخذوا من محاسنها تيجانا لقصائدهم وقلائد ••• ولم يبلغ قمة الشعر إلا من نال من الطبيعة المـدد الأعظم والحظ الأوفر •

القمر

أيها الذاهل الفريد ! تذرع فراسخ السماء فى وحشة اليأس . هل مات إلفك قبل آدم فأقفرت من الجمال عينك الجدبة ، أم فارقتك السعادة منذ أطللت من محرابك النقى على مقتل قابيل ؟ لم أر غيرك من سكان السماء أقبل على أهل الأرض يقاسمهم البلاء ويشاطرهم الشقاء . ويسامر المؤرق إذا نام عنه الخليل ، وتمثل :

تنام عينى وعين البدر ساهرة
وتستحيل وصبغ الليل لم يحل

من غيرك يطل على العاشق من نافذته فيمسح جبينه المحموم بشعاعه البارد ، ويرش على فراشه الملتهب أنداء الصبر والعزاء .

أصفرار خوف ما عليك أم صفرة العلة والضنى ، أم تلك من شدة الملل ، كما قال شيلى : « أيها القمر الحزين . أمن صعود السموات تعلوك الصفرة ، أم من الوحدة بين جماعة النجوم الغرباء . أسفى على عينك يعبث بها التبدل كأنها عين الساخط طافت الوجود فما صادفت حسنة ، ولا قرت على قرة » .

المســـاء

نضب النهار وسال الليل فى مجاريه المظلمة . له خرير تسمعه الملائكة ، ينيم النبات كما ينام الطفل على غناء أمه .

أيها القلق المحزون ! اخرج الى الليل البارد البليل الظلال تتنفس عليك الأشجار الهرمة حكمتها الندية . وترسل الوردة العــذراء أنفاسها الطــاهرة ، ويرشف العشب الأخضر الحميم من بطن قدمك ، وتنسل روح الروض فى روحك فتتركها خضراء معشبة . فاذا أمسيت كذلك كنت جديرا أن تنظر الى المنازل فتقول : أيهــا المستتر فى بيته ! كأنك بك فى ألم ولوعة . إنى أفيض نعمة . فهــاك نفحــات من سرورى أرسلها عليك بين نفحات الشمال . ونفثات من نعيمى أبثها لك فى عشب منزلك أو فى ثراه .

الشــــفــق

أيها القصر الذهبي ! ما أهيم نفسى الى أعاليك اللامعة تحوم على شرفاتها . فأيما طريق سلكت من هناك سال بها فى منحدر حريرى الى عوالم الذكر القديمة . وتلك أحلى من الأمل العذب والأمانى الناضجة .

ألوانك الجمة المتمازجة لهـا نظير فى قوس المطر . لكن ألوان القوس تنشأ عن دموع السحاب . وألوانك عن دموع الإنسانية الباكية . وان ما يتجدد فى أشعتك الذائبة من سالف المناعم له فى الفؤاد لذة فوق لذة . وكذلك الحلاوة فى جوار المرارة أحلى . والجمال فى جانب الحزن أجمل . وزهر الخـــريف أفتن لقرب الشتاء . والحـديقة الخضراء فى الشفق المريض تبدو للخيال جنـة جزؤها فى الأرض ، وعنـد رضوان سائرها .

النوم

تنام الطبيعة فى خدر الليل الحريرى ، لا حركة ، ولا صوت ، إلا أن تتقلب الكائنات فتنسجم فى مسامع الظلام وساوس حليها السائغة .

أيها النوم ! ألا طويتنى فى سلطانك الساكن ، أو رفرفت على رأسى الحار بأجنحتك الباردة . لقد مال الورد المكدود على ورقه الأخضر . وخففت للنعاس رءوس الياسمين تحت أنفاس النسائم الناعمة . وبات الهواء أخف على جبين الكون من كف الوالدة على جبين طفلها النابض . ودبت رحمة الله على أرضه المظلمة الندية ، وأطلت النجوم من منابرها العلوية بفصاحة صامتة . والله أطلق عباده من سجن الهم والشقاء ، وخلص الحب الأبدي من شوائب الكدر .

الـــــــورد

مسفر الحسن الناعم والجمال الولهان . يشهد على لبنه وصبابته النفس الذائب والخجل الأحمر .

الورد : أنس لوحشة الروض ، ومجـامر لخضرته المبلولة . فكأنه القلوب الحـــرى فى لهــو الحسان الأخضر ، ولهو القضاء الأسود .

والوردة كنز مدور ، حشوه الرقة والملاحة ، يميل على عود نحيف . فهى أشبه بنظيرتها الوردة الآدمية ، أعنى : المرأة . التى هى أجمل حمل ، على أخف قدم .

إلى الوردة الآدمية أهدى الروض وردة ضـاحكة ندية . طالما علق عليها البلبل أنفاسه الحلوة فى دولة القمر ، ثم صبها حتى ترنح الزهر طربا ، وخفق الورق غراما ، فكانت الحسناء على تلك الوردة أحنى جوانح من البلبل وأحلى نفسا . بل كان نفسها بسطة فى أجل الوردة . ومدة فى حياتها . وخيل للوردة ، وهى تينع تحت ذاك الوجه المقمر ، والنفس العـــذب ، أنها لم تفارق البلبل الصياح فى دولة القمر .

الريح

ملك الفضاء استوى على أريكة الروض واحتواه عرش النبات ، له الخطرات المائسات فى مقاصير الغاب . والسبحات الفائضات فى قصور السحاب . وهو موسيقار الجو ، له من الشجر الآلات محكمة الأصوات تخفق فى حركة أمتع الخفقان . وتوسوس ولا وسوسة الذهب على الحسان . وكأنك أيها الريح تعيد على مسامع العالم ما كان له فى مبدأ الخليقة من أغانى الحرية ، وأناشيد الاستقلال . وقد خرس الوجود إجلالا لغنائك المهيب ، فالسحاب تكفكف الدموع ، والبحر يبلع الأمواج ، والطير يرد الأغاريد : إصغاء لأوراقك الرخيمة وأعوادك الحلوة .

شجرة فوق القبر

عانق جذرك ذلك الثرى وانعقد به ، فكأنه الذكرى الملهوفة تشبثت بالجمال المدفون ونبتت عليه . وحنت فروعك على ذلك القبر كما يحنو الغرام الثاكل على خيال اللذات المنقرضة . ياله حزن ساكت ، كأن مغرما أكب على تراب حبيبته حتى اذا أفرغ ماء عينيه أقام ينظر روحه تيبس فى صحراء الفراق على أبطأ المهل . وشر البلاء : أبطؤه .

وأنت أيتها الشجرة ! ما زال بك الحزن حتى كأنك تحولت الى حزن نباتى أغلبه عيون تغرورق بالورق الندى ، وآنا تسكبه ناضرا أو ذابلا كأنه الدمع الرطيب أو المحترق .

لأنت ياشجرة أوفى من بكى ، وأبكى من وفى ، وأكرم الناس حفاظا . تلبسين الحداد ، وقد ابيض على سائر الباكين . حزنك الحى الدائم ، وما عداه صيحة فى واد .

الشاعر والروضة

حرام على الشاعر النوم الهادىء . وعلى أخويه : المجنون ، والعاشق . اذا وقفت الأرواح فى طاعة النوم كانت روح الشاعر الموجة القلقة ، دائمة السكر على سواحل الإحساس . بل كانت السراج الوهاج لا يزال بالجفون شعاعة حتى تتفرق ، ويخرج الشاعر على وجهه . وكذلك يفعل المجنون والعاشق . والشعر والعشق والجنون تفيض من ينبوع واحد هو الإحساس المفرط : وكلنا شاعر ، وكلنا عاشق ، وكل الناس مجنون

ولكن على حسب الهوى اختلف الجنون

حدثنى شاعر ، قال :

وجدنى السحر ذات ليلة فى الخلاء ، والقمر الساحر يمس خضرة الروض فتتحول على عصاه اللامعة فضة بيضاء . وأقدامى على البساط المقدس كالشفاه على ضريح الولى . فكانت لثمات لا خطوات .

والذهن وردة ناضرة ، أنداؤها الخواطر العـــذبة ترقرق على صفحاتها الحمر أو تقطر .

وأفكارى الحلوة تتوالى عفوا كأن يد الطفل مرت على الأوتار السبعة من قانون محكم . أو البلبل يصب ألحانه من قمة الليل فى آذان الصمت والفراغ .

وأهتز كأنى الورقة الخضراء فى ذراع العـاصفة . والعشاق أوراق تخضر برهة فى بياض الحب ، ثم تصفر فى سواده الأصم . ثم .

يفنوا كأنهم ورق جف   فألوت به الصبا والدبور

وأهيم بين البساتين كأن الحب تمثل لهيبا ، شاردا ، مخلوع العذر ، يضرب فى كل ناحية .

أختال فى سوح الطبيعة . ملك الليل وقيصر الفراغ. صائغاى : الخيال ، والقمر . هــذا يصوغ الجمــال ، وذلك الفضة ، حتى أرى الوجود قصرا مفضضا يضحك خيالات الحسان .

والخيال كنز لا يفنى . فأما مع الحزن واليأس فانه يفيض بالظلمة والسواد ، كأنه منجم الفحم ، أو نهر الحبر ، أو « البحر الأسود » ، حتى تسود صحيفـة الكون ويروح فى ثياب الحداد :

من سودت نار الجوى عيشه

يسود فى عينيه وجه الضـــــحا

الكون مرآة تراءى بهـــا

ما ضـــمن القلب وضم الحشا (١)

ويبقى الخيال فى ذلك السواد حتى تمسه كيميـاء السرور فتصيره ذهبا إبريزا .. يذهب صحيفة الوجود ويزينها بالصور الصباح .. والتحف الملاح .

وما زلت بين القمر والخيال فى معرض يتلاشى القمر أمامه ، حتى طلعت مع الصبح على الروضة .

بزغت عروس النهار ، وخطرت فى حاشيتها الحمراء على مجامر الروض ، ففاحت من أذيالها الوردية النفحات الذكية . وناح الحمام غراما بوجنة الصباح . وذاب السحاب فى ابتسامته .

ورأيت « الروضة » تقلق فى الريح كالعذراء يعبث بها الأمل . روضة يتنفس فيها الحب لا الهواء . وتنبت أغراسها فى الحب لا الثرى . حتى صخورها تسكب الحب فى هيئة الماء والحب يخجل فى خدود وردها . والأشعة تسيل على وجناته الأسيلة كأنها ألحاظ العشاق

---

(١) للمؤلف .

أو عقولهم • وأنفاس الحب تجرى بها نواعم وهى أخشن على القلوب من العواصف الخشنة •

تأمل هذه الأركان المظلمة المستورة بالنبات • تلك معاكف الحب صاغها من الظلال السود ليخلو فيهـــا بأحزانه والهموم • هنا يدفن الحب آماله الذابلة ، وينثر على قبرها الأزهار الضاحكة ، لتكون سخرة من غرور الإنسان حتى تذبل تلك الأزهار • وكـذلك السـخر مصيره الى الأسف والبلى •

وآونة ترى الحب فى ملاعبه المشمسة يتلألأ فى صفاء الصحو ، وقد قامت الأصوات والحركات فى عبادته • والطير والنحل والأرواح ذات الأجنحة الملونة الشفافة قد رفعت نغماتها تسبيحا وتهليلا كأنهـــا الحجيج فى عرفات ، وكأنها تقول مع اللورد بيرون :

« من كان يجهل الحب فهذه مدرسته • ومن أدرك طرفا من ذلك السر الغامض فهنا مجلاه ومذاعه • هنا ملجؤه حيث يهرب من سيئات العالم وأضاليله • والحب شيء من طبعه النماء والاستفاضة حتى يصير نغمـــة لا تحد ، جديرة أن تباهى ببقائها الأنوار الأبدية » •

النيل

ينساب فى همود الصحراء كأنه الأمل العريض فى وحشة الفراق ، أو الحلم العذب يتخلل النوم العميق ، يناجى الرمال الصاغية كأنه عقل عظيم يناجى السريرة . ترفرف على ضفافه عهود العصور الغابرة . وتكمن فى كهوفه أرواح سيزوستريس ورمسيس ، ونيخاؤس . وربما ترنمت فى هديره الرخيم ضحكة « كيلوبترا » ، وهبت فى نسيمه أنفاسها الخالدة . على ضفافك الهياكل هزلها البلى فصارت هياكلا ، كأنها الشجر المسلوب أو العظام العارية . خرابات يأكل فيها الموت آمال الإنسانية ضاحكا من غرورها . ويبكى القمر على شقاء الإنسان بأشعة رطبة لؤلؤية . سكون خرب رهيب . كأن دنيا كانت تضج بالحياة فأقفرت بغتة وعادت تضج بالصمت والعدم .. وبعض الصمت أملأ للأذن من الصباح .

ثم ينتقل السائح من تلك الطلول الذاهلة الى الأرياف والقرى العامرة • تسعد وتثرى فى مهرجان الفيضان ذلك الضيف الخفيف الثقيل • الحامل هدايا الخصب والبركة فى الصرر والصناديق المائية • تزدحم على ظهره كأنها جمالات صفر • فتدس سرا فى تربة البلاد حتى اذا جاء الأجل نشرتها يد الله على موائد الحقـــــول زهرا وفاكهة وبقــلا • قرة للعيون والأسنان ، فكأن وادى النيل معرضا زراعيا •

والسحاب فى صفاء الجو يرفل فى حلل الضياء كأنه يؤم معرضا سماويا •

والنهار يتــلألأ كأنه قصر زجاجى ، ويهزه الطرب كأن الشمس تسقيه أشعة من الخمر لا من الضياء ، وقد تضاعفت بهجة الكون فى عين اليوم كمـــا يشرق المحب فى نظرة صاحبته • ومرح التيار يطمح ، ويثب ، كأنه الأفكار الراقصة فى ذهن الثمل •

والبساتين تختال فى الحلل المشمسة ، تتفتح عليهـــا الثمار الحمر ، كما تمط الحسان شفاهها من الدلال •

الصيف

فى وادى النيل المبارك من أطال النظر الى وجـوه الـكون فى أثنـــاء الصيف ، لم يبصر أدنى مشجع على الشغل ولا داع الى العمل ، بل أينما طرح بصره لم ير إلا باعثا على الدعة والبطالة ، وإلا سائقا الى الراحة واللهو . الصيف ينفخ فى الكائنات روح الكسل ويبعث الفتور فى أعضاء الطبيعة ، فاذا غلى فى جوفهـــا ماء الشباب ولعبت بأعطافها خمرته ، مال الكون وانثنى ونال منه الفتور ، حتى كاد يعقد من فرط اللين والدماثة . وكأن نور الشمس قد استوطأ مهاد الروض وألفـاه أوثر من الخز والديبـــاج ، فانبسط عليه ونام حتى استغرق فى نومه :

« نام الضياء على بساط الروض »

فلله عين الشمس تبعث الضياء النائم ، أو اذا شئت فادعه النوم الساطع .. كل العيون تشرب النوم ، إلا

عين الشمس فانها تمجه فى صورة الشعاع .

تنام الشمس ونورها . وتنام الرياض إبان الظهيرة فى فصل الصيف . وينام الموظفون فى منازلهم أو على مكاتبهم ، والباعة فى حوانيتهم ، والحوذية على أذرع أفراسهم . وتنام الشوارع والأزقة ، ويريح الله البلاد من ضجيج المدينة .. إلا تلك الأصوات الملعونة : أصوات باعة الشربات على اختلاف أصنافه المتزايدة أبدا (وباعة الشربات عندنا فاقوا العالم فى ملكة الابتكار) . وأشنع من أصواتهم رنات الأكواب النحاسية التى تكفى لإزعاج ما وراء المادة ، وإيقاظ القرن التاسع عشر رحمه الله رحمة واسعة .

ينام وادى النيل إبان الظهيرة . فتظله من سمائه الزرقاء بأرجائها الصافية أحلام بهيجة بهية . يسنح أثناءها من تلك السحب الخفيفة الرقيقة خيالات لطيفة هوائية . فاذا جاء الأصيل تحركت مروحة النسيم ، فاستلت نسيم النوم من روح الروض تدريجا حتى يفيق من هجعته ، ويقوم من ضجعته ، ولكنه يبقى على أهدأ مايكون من الصفاء والطمأنينة الى أن تنشر الأصائل على المغربين ثوب الشفق يزدان بجميع الألوان لا تكاد

تميز من بينها لونا بذاته ، بل كلهـا متمازجة ، يندمج بعضها فى بعض كأنها خليط من أقواس قزح •

أما ليل الصيف فى مصر ، فأجمل أوقاتها لا مشاحة ، فهو أحق الأزمان ببيت المعرى :

ليلتى هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمـان

إذا كان نصيب النهـار ، هو ما وصفنا من الكسل ، والفتور ، والنوم • فان ليل الصيف يأخذ من هـذه الصفات الثلاث : رقتها ، ولينها ، ويضيف اليهـا حدة النشاط ، وقلق الحيـاة ، ورشاقة الحركة • حتى لو تمثل لك النهار كغادة مكسال قطيع الخطو ، نئوم الضحا تعشق الفراش ، قد أفرط فيها اللين حتى لو أراد الهوى لعقد منها نطـاقا على خصره أو وشاحا على صدره • إذا تمثل لك نهار الصيف كهذه الغادة ، كان ليل الصيف جديرا أن يتمثل لك كغادة رشيقة هيفاء ، يزدهيها الطرب والمرح أن تطأ الثرى فتنزو فى الهـواء لا يستقر لها على أديمه قدم • ترفل فى الحبر الأسود المرصع باللآلىء • وربمـا سطح على جبينهـا أشرق التيجان (إذا كانت قمرية) • ذاك الذى يغمر الوجود فى طوفانه الفضى •

إنى مغرم بالشعر ، أستنشق من دواوين الفحول نفحاته ، على أنى ربما طرحت القوافى جانبا لأستقبل نسيم الليلة الصيفية ، ذلك النسيم الذى يدخل مع الأكسوجين والأزوت فى تركيبه جملة من عناصر الشعر والحب والرجاء واليأس . ولعل البحترى كان يرمى بعض الشيء الى ما أقوله الآن ، حيث قال :

ورق نسيم الصيف حتى حسبته
يجيء بأنفاس الأحبة نعما

ألا يرى القارىء فى كل ما ذكرنا عن نهار الصيف وليله ، مثبطات عن العمل ، ومسجعات على الراحة واللهو . اذا كانت الطبيعة نفسها تلك القوة الهائلة قد رأت أن تأخذ من الراحة بقسط ، وتضرب بسهم فى اللهو والخلاعة .. فكيف بالإنسان الضعيف الواهن ، إنه لأحق بالراحة وأولى . على أنه لو لم يكن فى الأمر إلا المجاملة ومراعاة الذوقيات ، لحسن بالإنسان أن يجارى الطبيعة فى سلوكها .

من أوضح الأدلة على أن الطبيعة تقصد اللهو والزينة فى فصل الصيف ، أنها تلبس حينئذ أبهج الحلل وآنق الوشى . هى فى الشتاء تخرج للخدمة والكدح فى ثوب

رث خلق قد تعطل من حلى البساتين وزخارف الجنان ، واستعاض بذلك أردية من السحاب والضباب لا يزال العالم منها فى شر واقع أو متوقع . تعبس الطبيعة أيام الشتاء فى وجهـــك ، فاذا رجوت ابتسامها وطـلاقة جبينها ، زادت عبوسا وصاحت فى وجهك ، ترسل عليك رعودها ذات الزماجر ، وتسل بروقها ذات الصواعق . ثم تنفث غضبها فى صورة القطر . ولخير عنــدى لو أرسلته حجارة من سجيل . تفعل الطبيعة ذلك ، ولها من العذر ما يتمسك به رؤساء الأقلام وأشباههم من كبار الموظفين ، وهو أن الموظف العالى لا يستطيع تأدية وظيفته الا اذا قلد الشتاء فى الزجر ، والنهر ، والإبراق، والإرعاد . وأما الطبيعة فى الصيف ، فهى كما قال ابن الرومى :

لبست حفل زينتها الدنيا وراقت بمنظر فتان

وكأنهــا أرادت أن يمتلىء الصيف من مواد النعيم والدعة ، بعكس ما غص به الشـــتاء من مواد الكد والحرمان . فاختارت لزينة ذلك الفصل الأنيق البهيج أبهج الزخارف وآنقها ، أعنى : الألوان . والألوان من أعظم نعم الله على العين الآدمية . قال المستر لى هنت :

« الألوان من أجزل النعم ، والصيف معرض الألوان . إنى أذكر صبّاغا فى مدينة جنوا ، كان يعلق حرائره على جـدار شـاهق أزاء حانوته ، حيث كانت تشرق تلك الأنسجة فى زرقة الجو الإيطالى إشراقا يجعل المرور على ذلك الصـباغ منّة مضـاعفة . ولو أبصرت تلك الألوان الزاهية لرحبت بها كما ترحب بشمس جديدة بزغت على الشمس الأصلية فى رابعة النهار . ولحسبت أن الطبيعة نفسها نسجت أستارا وسـتائر من الورد والبهار والأقحوان ، ثم نشرتها على الملأ . وإنها السماء الزرقاء ، والهـواء الصافى ، همـا اللذان أهديا إلى الإيطال ما اشتهروا به من براعة التلوين » .

إن للألوان ، خلاف كونها الحلل التى تتبرج فيهـا الطبيعة ، معنى آخر أخلاقيا . هو أن الألوان ابتسامات الطبيعة ، فاذا اشتد ابتسام الألوان فانفطرت عن جمال أبهى وأشرق ، صح أن نسميها « ضحكات الطبيعة » كما نبصرها فى الأزهار . وما أعمق نظر البحترى وأنفذ بصره ، حيث قال « الزهر الضاحك » :

وبديع كأنه الزهر الضاحك

فى رونق الربيع الجـديد

هذه الألوان ، أو الابتسامات ، أو الضحكات ، تدل على نية الطبيعة وتعمدها أن تشركنا معها فى مباشرة ما يملأ صدرها من الحيرة والابتهاج . واذا كان ذلك شأن الطبيعة ، أما كان الاجدر بنا أن نقابل انعطافها نحونا ، وتوددها إلينا ، بمثلهما أو أكثر . أليست الطبيعة أحق بالزيارة الخصوصية من الأصدقاء والأحباب . لا سيما اذا ثبت للقارىء أنه لا أصدقاء ولا أحباب فى هذا الوجود ، وإن الصداقة والحب انما هى أوهام ترفرف فى الجو مع الغربان أو الحمام والطيارات والبخار وانها لن تهبط الينا حتى يبلغ قائل البيت الآتى أمنيته :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلى

أليس من أكبر فضل الله أن الإنسان قد يستطيع الهرب ولو ساعة من العمران ، ذلك السجن المملوء بالمجرمين ، أو الكهف المفعم بالذئاب ، أو الجحيم الغاص بالأبالسة ، فيقيم هنيهة مع ذلك الخلق الكريم الطيب الأصل والفرع ، أعنى : بنى النبات . ألست صادقا حين أقول عن النبات : إنه طيب الأصل والفرع . ان

إثبات ذلك لا يكلفك إلا مجرد النظر الى شجرة بلغت من الكبر عتيا ، ثم هى لا تزال تفى بعهودها القديمة ، أعنى : بالثمر ، وبالظل ، وبالبذر . هل إذا نظرت ابن آدم ترى له مثل ذلك من البر والوفاء ؟ قد يهبط فى الكرم والوفاء الى صدر الآدمى اذا خرج الشيطان من ذلك الصدر ، وما ذلك الشيطان إلا النفس . لذلك كنت لا أحب الإنسان ولا أجله إلا فى حالة واحدة ، أعنى بهـا : حالة الموت . إنى مستعد أن أعشق الموت وجميع متعلقاته : من قبور وأموات ، وصخور ورفات، وتراب وحسرات ، وفاكهة وعبرات . إنى أجثو على الركب أمام أحقر القبور فأؤدى أخشع شعائر الاحترام والإجلال بكل ارتياح لأنى أكون آمنا من أن يحدث خضوعى هـــذا غرورا لعظام الميت فيعروها الانتفاخ والورم . بل ســـبحان من برأ الأموات من الورم والانتفاخ وميز به عبيده الأحياء .

الـــــزواج

جرى بينى وبين صاحب لى ، ذكر الزواج ، فسألته : « هل حمدت الزواج ؟ » . قال متهكما : « نعم أحمد الزواج حمـــــد الذى لم ينعم ، ولن ينعم بالمرأة إلا فى دواوين الشعراء ، فاذا نظر الى النساء فى عالم الحقيقة ، كان كأنما يبصر صورا حسانا مصفوفة فى معرض ، فهو يدرك محاسنها ، ويعرف مزاياها ، ولا يحدث النفس بشراء أيها ، وحسبه من الحسان ذلك ، أو أنه يتغنى بمثل هذه الأبيات :

أخذ الإله لنـــا بثأر من قلوبنـــا
من مفعمات للحجـــال رشـــاق
رقت ميـــاه وجوههن لنـــاظر
وقلوبهن عليـــه غير رقاق
هيف القـــدود إذا نهض لملعب
وإذا مشين صـــوادف الأعنـــاق

يهزن أعطافا تباعد بالجنى
وتروق بالأثمار والإيراق
صيد حرمناه على إغراقنا
فى النزع والحرمان فى الإغراق

وهنا أطرق ذلك الصاحب مليا ثم قال : « نحن نبصر الواحد اذا أراد أن يشترى متاعا : كثوب ، أو ساعة ، أو حذاء ، لا يخطر بباله أن يكل شراء أى هذه الأشياء الى حد سواه ، فاذا وكل ذلك الى آخر ، عجب الناس وقالوا : أبله ، ورب الكعبة . ثم لايمتنع أحدهم بعد ذلك من تكليف امرأة ماشراء زوجة له ، كأن الثوب أو الساعة ، أجل خطرا من الزوجة . وتعود الخاطبة فتصف من خطبت ، والفتى منصت ، يصدق كل ماتقول، حتى كأن هذه المرأة الجاهلة بوجوه الحسن وأسرار الجمال ، تماثل فى صدق النظر ، وبراعة الوصف ، الشاعرين الكبيرين : ابن المعتز ، وشكسبير ، أو المصور العظيم : رفائيل . ثم يحدث بعد ذلك ما هو معلوم لدى كل انسان » . انتهى كلام الصاحب .

قال جان جاك روسو : « الحب المتبادل ، يجب أن يكون أول العقود بين الزوجين . يجب أن تكون العين

والقلب أول رائدين للزوج والزوجة • لأنه لما كان أول واجبات الزوجين عقب الاقتران هو إخلاص أحدهما الحب للآخر ، ولما كان الحب مما لا يملكه الإنسان ، بل هو اضطرارى ، أصبح ذلك الواجب يستلزم واجبا أسبق ، وهو التحـاب قبل الزواج • هذا هو قانون الطبيعة الذى لا ينقض » • انتهى كلام روسو •

والحب فى الإنسان عاطفة قوية أوجدها الله فى عبده وسيلة الى النسل والألفة التى عليها صلاح العالم وسعادته ، وقد يفتح فريق من المتطرفين فى الجد والوقار عاطفة الحب ، ويسمونها : صبيانية • ويحمدون من الناس من خمد فى نفسه الحب • واشتعل مكانه الطمع فى المال أو الشهرة ، فيقولون : هذا رجل الجد والعمل، وربما أيدوا قولهم بالإشارة الى ما يأتيه بعض الفاسقين من المنكرات ، وهو برهان واه ، وحجة داحضة ، فان هؤلاء الفاسقين اذا صح أن الحب من بعض بواعثهم على الخبائث ، فانه الحب الفاسد ، ونحن انما نذكر الصحيح ، فاذا فسدت كانت من أسباب الفساد •

والعواطف اذا تركت فى مجراها الطبيعى كانت صالحة ، وهكذا كل شىء يجرى على سنة الطبيعة يكون

صالحا ، ولا يجيء التلف إلا من قبـــل الإنسان الذى يجمع بين الغرور والجهل ، وبين التعاظم والحماقة . فمن سنة الطبيعة : أنها منحت الإنسان الشباب ليكون باعثا له على الولوع بمحاسن المرأة حتى تصبح هذه المحاسن فى عينه أجلى مظهر لروح الجمال والشرف ، وجوهر الصدق والطهارة ، أو كما يقول : كارليل ، وأمرسون، وسائر نوابغ المغرب : « تصبح محاسن المرأة أجلى مظهر للذات الإلهية » . حتى إذا انقدحت بين الفتى والفتاة شرارة الحب الصحيح لم تزل تعظم حتى تشمل أشعتها جميع خلق الله ، وتضيء الكون أجمع بسناها العميم . هذا قانون الطبيعة الذى لا يزال عبيد التقاليد وأسرى العادات يعملون على نقضه وفسخه ، ويسنون بدله قوانين باطلة ممقوتة تجر الى الفساد والشقاء ، حتى يعود الشباب ، الذى هو من أكبر نعم الله ، آفة للشاب ومحنة . فاذا الشبيبة أوقـــدت الحب فى نفس الفتى الرقيق الشعور اللطيف الروح . إذا الشبيبة أوقدت ذلك اللهيب الذى ينبغى أن ينقى النفس من الخبائث ، كما تنقى النار الفضة والذهب . لم يجد الفتى من يوجه اليه ذاك اللهيب الطاهر أو وجهه الى من ليس بأهله

أو الى من يرده عليه مشفوعا بالاحتقار . وفى جميع هذه الأحوال يرجــع اللهيب على صــاحبه بالإحراق ، فيذهب بأمله ، وبما يصحب الأمل من صـــفات حب الغير ، والرحمة ، وارادة الخير . ذلك اذا كان الفتى من طبعه رقيق الشعور ، لطيف الروح . فاذا كان جامدا كثيف الطبع ، لم يلبث أن يخبو فى نفسه لهيب الحب . ونحن لا نزال نبصر من أمثال هذا من تراهم يشغفون فى شرخ الشباب بتوافه الأشياء ، يجعلونها بدلا من الحب والجمال ، فمولع بالخيل ، ومنهوم بالمقامرة ، ولهج بلعب « الطــــاولة » ، ومغـــــرم بالطرابيش والكرافتات ، ومشغوف بلا شيء الى غير ذلك .

هذه الطبيعة قد جعلت الشباب للانسان عصر لذة ونعيم وتنقية للنفس .. وشحذ للحواس .. وإمضــاء للذهن .. وتفتيح للطبع .. حتى ينفسح ويصير مرآة لجميع ما خلق الله . وحينئذ ترفرف نفس الإنسان على جميع البشر ، والحيوان ،والجماد وتحنو عليها .. وهذا منتهى العبادة . قال الشاعر كولريدج : « أتقى الناس وأعبدهم ، أحبهم لمخلوقات الله وأرحمهم لها » . هذه الطبيعة قد جعلت عصر الرجولة عصر طمأنينة وسعى فى

صلاح العائلات وهنائها المترتب عليه سعادة المجتمع ، وعصر حب عام ورحمة تسع الأرض والسماء ، وجعلت زمن الهرم زمن استمتاع بتأمل ما صنع الإنسان من حميد الآثار ، والتذاذ بحساب ما سيكون لتلك الآثار من مستقبل الخير والنفع •• وزمن سرور بقرب لقاء الله •• والانتقال الى الدار الأبدية •• هذه سنن الطبيعة التى نقضها الإنسان •• بل عكسها فانعكست نتائجها • وأمسينا نرى عصر الشباب مملوءا إما بالجمود والبله والحماقة •• أو بالنزق والفجور والغرور إلخ • ولا نبصر فرقا كبيرا بين الإنسان فى زمن الشباب •• وبينه فى أيام الرجولة أو الهرم •• فهو : طفل الشبيبة •• طفل الرجولة ، طفل الهرم • نعم ما أقل الفرق يا أخى بين : طفل العشرين ، وطفل الأربعين ، وطفل السبعين • وأكبر أسباب هذا الفساد هو ، كما رأيت ، عكس القوانين الطبيعية •

ولم يزل كتاب المغرب يعزون معظم شقاء العائلات الى الزواج المتنافر • عنى : الزواج عن غير سابقة حب والتئام • فمن أنفس ماكتب فى هذا الصدد شعر لملتون •• يقوله على لسان آدم فى كتابه الشهير « الفردوس

المفقود » هذا منثوره : « ولن يجـــد الإنسان زوجة موافقة بل سيكره على من تربطه بها نوائب الزمن أو أغلاط القضاء . فأما من يشغف بها ، فسوف يفوته بها الغرور والتمرد حتى يجدها زوجة لرجل خسيس غبى . فاذا مالت إليه الحسناء زجرها عنه أبواها . وربما عشق من هى حليلة عدوه .. فيعانى فى حبها الخجل والبغضاء . وسيكون هذا أصل البلاء وفساد العائلات » . انتهى كلام ملتون .

وقد تكلم الكاتب « أمرسون » فى هذا الموضوع .. فأثنى على عيشة الفلاحين ، وقال : « إنها أقرب المعـــائش فى أمر الزواج الى الطبيعة ، وأجرى على قوانينها » ، ثم ما معناه : « أما والله لو شهد ملتون عيشة هؤلاء الفلاحين لأبصر أناسا ، عافاهم الله فى أمر الزواج من تلك المصـــائب التى يذكرها على لسان آدم » . ثم استطرد الى الكلام الآتى :

« لم أر شيئا ألذ فى نفسى من إســفار آيات الود والرفق فى الغلام الصغير . هذه الآيات هى فجر الحب والرحمة الذى ينفلق فى نفس الغلام الفلاح الخشن . نرى الصبى الصغير قبل هذا الفجر اللذيذ يثقل مداعبة

الفتاة الى حد الإساءة ، حتى اذا برق فجر الحب أقبل على الفتاة بأدب واحترام ، فحمل لها كتابها ريثما تصلح ثوبها ، ثم يخيل له أنها اتبذت منه مكانا قصيا ، بل ليخيل له أنها اتخذت النجم مقرا ، وقد أقامت بينها وبينه حاجزا مقدسا ، فهو يخالط البنات فى غير اكتراث، إلا واحدة قد تحصنت منه فى معقل منيع من حسنها وجلالهـــا . وهكذا تنمو فى الصبى البسيط أشرف العواطف ، عواطف الاحترام والإعجاب والحب . بلى أى شىء أحلى فى العـين من رؤية الصبية ذات الثانية عشرة ، إذ تقف على حانوت القرية أمام الغــلام ذى الرابعة عشرة لشراء ذراع من الصوف ، أو قرطاس من الورق ، فتحادث الغلام نصف ساعة عن لا شىء ، وقد تنازع لحظها وصوتها جرأة الحب وحياؤه، وتلون وجهها ألوانا . كذلك تتأكـد علائق الحب الطاهر ، والرجاء والثقة ، بين فتاة الريف وفتاه . وما هى إلا برهة حتى يحتاج الفتى الى زوجة ، فيعلم أين يجـد قرينة حلوة العشرة .. ممتعة الأنس . ثم لا يخشى أقل خطر مما ذكر الشاعر ملتون على لسان آدم .

العـــائـــلة

إن أكبر دواعي الاضطراب الذي يعرو العائلات ، هو كثرة الخلاف بين الزوجين ، فاذا استقرينا مناشيء الخلاف وجدنا أغلبها تافها لا يدعو الى ذلك النزاع ، لولا أمر واحد ــ هو موضوع كلامنا اليوم ــ وذلك تشدد الزوجة وصلابة جانبها ، ومحاسبتها الزوج على كل كبيرة وصغيرة . ولو تسامحت الزوجات في كثير من المسائل وتغاضت ، وأرخت للأزواج الأعنة ، للآن من عيشهم ماصعب ، واتسع من أمرهم ما ضاق .

لقد كتب على المرأة الخضوع للرجل ، والانقيـــاد لحكمه ولحكم الرأي العـــام ، والنواميس الأدبية ، والاعتبـارات الاجتماعية . سنة الله التي ليس للمرأة عنها محيد إلا إلى ما هو أضر وأقسى . لذلك كان أهم الواجبات على أولياء الأمور أن يغرسوا في طباع البنات فضيلة الطاعة ، ولين العريكة ، وضبط النفس بردعهن

عن التمادي فيما يشتهين من الألعاب والملاهي . فان الاسترسال فى الشهوات هو أسرع الوسائل الى الطيش والنزق ، وكثرة التلون والتقلب المفضية الى الغرور والعناد ، التى أسلفنا ، إنها أكبر مصادر الشقاق العائلى .

فما أخلق أولياء الأمور بأن يعترضوا فى الأحيان ملاذ البنات بدواعى الجد ، حتى لا تمر عليهن لحظة واحدة ينسين فيها أنهن مغلولات بجملة قيود . فيكن فى منتهى اللهو واللعب ، أعلم بواقع أمورهن وأذكر لحقيقة حالهن . وأحرى أن يسرعن الإجابة اذا أهاب بهن فى حومة الملاهى صوت المصلحة الكبرى . ولاتعدم هذه التربية الشديدة ثمارها من فضائل الطاعة واللين والانقياد التى هى أهم صفات المرأة .

قال روسو : « لما قضى » على المرأة الخضوع للنوع الإنسانى ، مع ماله من الخبائث والرذائل والأغلاط والسقطات وجب أن تعود المرأة احتمال الجور ومظالم الزوج فى صبر وصمت . ولبس فى صالح الزوج ، بل فى صالحها نفسها ، أن تستشعر اللين والرقة . فليس فى الخشونة والصلابة إلا ما يزيد معاملة الأزواج سوءا

وظلمـا ، إذ يرون أن زوجاتهم ما كن ليغلبنهم بتلك السواعد البضة الرخصة ذات الحلى الرنانة • وأن الله سبحانه وتعالى لم يمنحهن هذه الخلابة وحسن التلطف ليكن ذوات شكاسة وشراسة ، ولم يخلقهنّ ضعيفات ليكن ذوات سـلطة وكبرياء ، ولم يرقق من أصواتهن ليستعملنها فى المخاشنة والمغالطة ، ولم يلين من محاسنهن ويبالغ فى ملاحتها ليشوهنها بالعبوس والقطيب • على أن هذه ليست الأسلحة التى أراد الله أن تغلب بهـا المرأة زوجها ، بل فى لين الأنثى ورقتها ، ما يقهر الذكر ويصلحه ، إلا أن يكون وحشا ضاريا • » انتهى كلام روسو •

هذا الميل للسلطة الذى نراه فى النساء ، أحق بأن يحارب بما أنه أشد الأميال تأثيرا فى أذهانهن • وقد جاء فى أساطير الأولين ما يدل على تغلب هذا الميل ، حتى على ميلهن ، الى التباهى بالجمال والإدلال بالملاحة• وذلك أنه فى عهد إحدى الولايات اليونانية القـديمة بلغ من استياء النساء لعدم بلوغهن ما يبغين من السلطة على أزواجهن ، أنهن ائتمرن جميعا لابتغاء وسيلة يبلغن بها حاجتهن المنشودة ، ففاجأن الأزواج ، وهم سـكارى

صرعتهم الكأس ، فشـــددن وثاقهم ، ثم أخذن يعملن الفكرة فى استنباط أبرع الحيلة لبلوغ غايتهن ، وبعـد طويل المداولة أجمع رأيهن على سلب أبصـار أولئك الأزواج مضحيات فى سبيل الحرية والسلطان تلك اللذة التى كن يكتسبنها من التفاخر بالحسن والجمال ، وقد هان عليهن ، فقد ما كان يبذل لهن من زفرات الوجد والصبابة ، مع فقد أوامر السيطرة والقهر ، قائلات : « لا أسف على ذهاب حب ، يذهب بالذل والصغار » .

وقد يرى بعض النساء ، من ذوات الحيلة والذكاء ، أن يحفظن سلطة أنفسهن مع أبصار الأزواج ، يتزوج رجل أحمق ، ضعيف العقل ، ليسـهل على إحداهن قياده . وما أظن شعور أمثال هؤلاء النساء إلا أقصى من شعور اللاتى يبقين مع العميان بمقدار فضل أعين العقل على أعين الجسم .

وإذا كان هذا ولوع النساء بالسلطة ، فان سبب ذلك أرجع الى الرجال منه الى النساء .ولو عامل الذكور أزواجهم بالحسنى ، لما وجدن سبيلا الى ذلك الحرص الشديد على السلطة . وقد علمنا التاريخ : أن العصيان نتيجة الاستبداد ، وأن العصاة اذا تغلبوا أوشكوا أن

يكونوا مستبدين أيضا . فما أجدر الأزواج والزوجات أن يسلكوا معا طريق المساواة والملاطفة . وهذه الكلمة لأفلاطون تؤيد ذلك .

قال ذلك الفيلسوف ، متخيلا : « لم يكن النوع البشرى ، بادىء بدء ، منقسما ، كما نبصره الآن ، الى ذكور وإناث . بل كان كل فرد مزيجا من عنصرى التذكير والتأنيث ، فكان يجمع فى ذاته الزوج والزوجة على أكمل ما يرام من الاتحاد والالتئام . وقد بلغ بفضل هذا النظام المحكم من هناء الإنسان وسعادته ، أنه شرع يبطر على الآلهة ويعصاهم . فلم ير كبير الآلهة عقابا أشد وأنكل من تطليق بعض الإنسان من بعضه الآخر ، وتحويله بذلك الى مخلوق أنقص منه فى حالته الأولى . وهذا منشأ اختلاف الجنسين : الذكر والأنثى ولكن الإنسان ما برح بعد هذا التفريق ، يذكر نعيمه الأول . ويحن الى عهده السالف ، فهو فى قلق دائم ، لا يقر قراره ، أو يعود الى شطره المفصول وجزئه المعزول . فاذا قدر الله اجتماع الشتيتين ، وانضمام الشريدين ، امتزجا بأشد ما يكون من الحب والألفة . ولكن الغالب ألا يقع ذلك الاتفاق الهنى ، فلا يصيب

الإنسان جزءه التائه ، بل يقع على ماهو غريب عنه ، فيحدث الاتفاق الهنى ، فلا يصيب الإنسان جزءه التائه، بل يقع على خلاف ، وتنافر ، وينحل العقد ، فينطلق كل جزء ليبحث عن شـــطره الحقيقى ، فيمتزج بكل ما لا قاه على سبيل التجربة ، وهو فى ذلك لا يجـد راحة ولا هناء ، أو يصادف عنصره وأصله » .

البيت

متع النهار ولم أبدأ العمل . ليس بى من زهد ولا ملل . ولا أنا كالمكسال ، نئوم الضحا . وكيف يكون كذلك من أزعجه فى أخريات الليل صوت العاجنة عند الجيران ، فهب من الوسن يحسب البيت ينهدم ، ويلتمس البلاط ليتأكد أنه لم يهو الى الحضيض . فلما هدأ روعى ، علمت أنه العجين ، لا كان ، ولو شربنا الطبيخ بلا خبز .

انقطع أملى من استئناف النوم . فتعزيت بأنى سأنام الليلة القابلة ، ونزلت الى المكتبة . فلما سكن العجين ، وقد هيأت أدوات الكتابة ، إذ بصدمات متتابعة فذكرت أنه الفران يكسر الحطب . وثار غضبى ، ولم أر من الحكمة أن أنفرد بالغيظ دون مسببه ، فمشيت الى النافذة كالمشمر فى عمل سياسى ، ثم ناديت الفران أناقشه الحساب ، وطرحت عليه عدة مسائل ، منها :

كيف أنه يهين نفسه بحملها على الكد قبل استفياء النوم ، وكيف يبلغ من توحشه أنه يزعج عباد الله المتمدنين فى أعقاب الظلام ، وكيف أن تقوى الله لم تمنعه من ارتكاب الجرم ، وهل يعد نفسه مسلما بعدها . وكيف وقد بينت له الأمر ، لا يستغفر ويخرج الى الصحراء ليبكى ذنبه حتى تقبل توبته . وهل لم يكن فى طاقته أن يخبز العجين بلا وقود ولماذا لا يشتغل بمهنة التدريس أو الصحافة بدل صناعته المقوتة . وهل فى عزمه الاستمرار على تكسير الخشب ؟ .. أجاب على كل هذه المسائل بأنه : سيستمر فى التكسير . واستمر . وجعلت أنظر الى ذلك المتوحش ، يرتكب فظيعته بكل برد وارتياح . كأنه لم يدر أن عظام المؤمنين تتحطم مع حطبه .. أنظر وأتعجب كأن العالم لم ير قبله فرانا يكسر الخشب ! ولكن الإنسان يتجاهل الشىء السيىء وإن كان مشهورا .

ثم هب الصغار والكبار ، لا كهبوب النسيم فى تياره، والطير فى أوكاره ، بل كهبوب الطبل فى إزعاجه وإنذاره .

ولبثت بين ذلك الضجيج ساعات ، وقد يئست فيه ،

إلا من سلطة الوقت ، مســــكن الأصوات ، ومزيج الآفات ، حتى هدأت الضوضاء مع الضحا .

والبيت إذا أضاف ـ الى حاجات العيش ، ورخيص الكماليات ، وسكينة الجـوار ـ لين الأدب ، وحسن المواساة وبشاشة القناعة ، وضحكة النزاهة ، ودمعـة الرحمة . كان مجمع المناعم ، ومضم الملاذ .

تلك درجة فى السعادة نحمـــد الله على اليأس من بلوغها . والحازم من ألهاه إصلاح الحـاضر عن طلب المحال . وإن فى شكر الموجود شغلا عن تمنى البعيد ، وإذا لم يكن بالمستنكر على الله أن يجعـــل الشارع مثوانا ، فمن الحماقة ألا نعد المسكن الحقير نعمة ، أى نعمة .

البيت بيت مهما حقر . وليس شقى أعيـاه الكد ، ونهكه الجهد فى إلا واجدا من الأرض أما رحيمة، تعطيه صدرا ملؤه الرأفه ، حسب المسكين قدرته أن يثلج فى الجدول البارد عظامه، ويبل بندى السحر لسانه . وأن يتخذ مروحته :

من النسيم الغض غب الحيــــا
يختـال فى أردية الفجـــــر

البيوت ضروب وأشـــكال ، من القصر الجليل الى الكوخ الضئيل . ومن الدار الغارقة فى أعماق الفضاء الى المخنـــوقة بين المســاكن لا تكاد تبصر السماء .. وأفضل البيوت عنـــــدى الخلوى ، الذى تضحك له الطبيعة ، ويغذوه الريف بطيباته . ولا ضرورة أن يكون حاويا لأرقى أدوات الترف ، وأثمن آلات الزينـــة . فحسبنا بالطبيعة مزخرفا ومنمقا ، وأجمل الغرف مافرشها الزهر ، وعرشها الكرم ، وأضاءها القمر ، وعطـرها النسيم . فاذا كان لابد من الغرفة المبنية ، فأعطنى حجرة بســـاطها « القش » الذى أحس فيه بلل الثرى وطراوة الروض . ولتكن مملوءة بالنوافذ المشرفة على المزارع والمروج . ولتكن قريبة من الأرض لا تعلو على أذرعة النبات الممدودة للعناق . وعلى شـــفاه الورد المشرئبة للثم . ولا بأس أن تزين جدرانها بالصور التى كلهـا جنان وبساتين ، فكأنها مرايا ترتسم عليهـا محـدقات الدار .

وأجزل النعم المنزلية فى مذهبى ، هو : السكون . وحسبك دليلا ، أن الطبيعة ساكنة . فاذا قيل : فماذا تفعل العصافير والمياه والريح ؟ قلت : تالله ماصوتت هذه

الأشياء إلا لتزيد السكون سكونا . أسأل القارئ :
أيرى بين سكون الطبيعة وبين الأصوات المذكورة تنافرا،
كما يجد إذا هاجم أذنه جلبة أناس يضجون ؟ أم يرى
بين أصوات الماء والريح والطير ، وبين سكون الأرض
والسماء وفاقا ، وأى وفاق ، التئاما وحسن تمازج ،
كالذى بين آلات الطرب المختلفة ، المتحدة فى النغمة ؟

السكون عندى أجل مزايا المنزل . وإنما يلجأ الى
البيت من ضوضاء المجتمع . فما معنى الفرار من
الضجة الى الضجة ؟ أما أصوات الأطفال فتلك أغاريد
الدار . والأطفال عصافير البيت وريحانه ، وملائكته
المنظورة إذا كانت سائر الملائكة خافية . فان كان لهؤلاء
الصغار عيب فليس إلا كثرتهم على الفقر . فأما طفلان
أو ثلاثة فأحلى مذاقا من العافية .

أما الزوجة فانها الملجأ الناعم ، والملاذ اللين . هى
الكهف الحلو كأنه خلية العسل . هى حصن من البلور
فى ضمانة الشرف ، وقلعة من الحرير فى خفارة العفاف .
هى الساحل المتين الذى يأوى اليه ملامح الحياة بعد
صولة الموج وثورة الهواء . هى الظل الخصيب الذى

يلبسه سائح الإنسانية بعد وعثاء السفر ولظى الهجائر .

فى حلاوة الزوجة ورقتهـــا ما يمحـــو مرارة الزمن وخشونته ، وكذلك الحسنات يذهبن السيئات .

إن الزوجة لتبث حولهـا هواء من السرور لا تكاد تطرقه الأحزان كأنه هالة القمر أو دارة الشمس . وأن الهموم لتضمحل فى صـــوت الزوجة كالخـــوف أمام البشرى . اذا كانت الموسيقى فتنة الألباب ، فقل فى صوت المرأة الذى يفتن الموسيقى : لو أنها تعقل .

المرأة : تحفة الدنيا ، وزينة الحيـــاة . فمن أحكم تدبيرها ، وجنى ثمرها .. كان أميرا على أكرم بقعـــة وأجمل مملكة . ومن أساء التدبير ، فخسر المرأة أو حبها وطاعتها ، فجدير أن يتمثل :

أعطيت ملكا فلم أحسن ســـياسته
وكل من لا يسوس الملك يخلعـــه

المرأة : هى المرآة التى تمثل مناقب الزوج حتى يرى فيها نفسه . هى المجرى المنسجم الذى ينقل مكارم الأب ووصاياه الى النسل مع ما للأم نفســـها من المحـــامد والسجايا .

اذا بنيت مخالطة الزوجين على الحب والإجلال ، أصبح لا هم لأحدهما إلا الظهور أمام الآخر كأكمل ما يكون الإنسان ، فلا تبرح أخلاقهما فى ارتقاء ، كالجسمين الخشنين ينعمهما التحاك أو يملسا .

هذه منزلة المنزل عند المتزوج . أما العزب فانه لاق ، على كل حال ، غبطة ومتاعا فى داره ، وإن خلت من المباهج العائلية ، وصفرت سماؤه من قمر الزوجة ونجوم البنين . ولو لم يكن فى دار العزب إلا أنه يطرح على بابها من الأثقال ما يختص بوظيفته ومعاملاته الخارجية لكفى .. وحسب الدار أنها تطلق أسير الحياة من قيوده الاجتماعية والسياسية ، بل من قيود ملابسه التى تكده وتعوق حركاته .

الإنسان حيوان لاعب ، محتاج بطبيعته الى اللعب طفلا وغلاما ، ورجلا وشيخا . ولا حرج . فان اللعب فى ذاته عمل برىء طاهر .. وهو مهرجان النفس وعيدها وهدنتها فى معترك العمر . وأن للنفس فى مواصلة الجد مللا ومجة ، بل صدأ يجلوه اللهو . والنفس مطيتك ، فان حملت عليها فى التعب حسرتها . والقلب اذا أكره عمى . قال الحكيم العربى : « إنى لأستجم نفسى بالشىء

من الباطل ليكون أقوى لهـــــا على الحق » وجاء فى الحكمة : « لا ينبغى للعاقل أن يخلى نفسه من واحدة من أربع : من غدو لمعاد ، أو إصلاح لمعاش ، أو فكر يقف به على ما يصلحه مما يفسده ، أو لهو حلال يستعين به على الحالات الثلاث » •

فاذا كان لابد للانسان من اللعب ، وكان الوقار يحرم على الحازم الخفة فى اللهو أمام الملأ ، وبعد ذلك من الخلاعة والمجون بل من النزق والجنون • وجب على المرء أن يجعل للهوه خلوة تحجبه من الأنظار وتبيحه ماشاء من الخفة والمرح • وأين تكون تلك الخلوة إلا فى البيت• البيت أمين الإنسان وكاتم أسراره •

إلى القانون

مستودع الهناء ، كأن درجاتك سلالم السماء . ومفاتيحك مفاتيح الصفاء ، ومغاليق العناء . أكر عليك أناملى ، فتأخذنى أريحية العابد كأنى أكرها على « سبحة » . وأجرى عليك يدى جريتها على الخوان والغوان . وأهيجك فكأنى أهيج عشا حلو التغريد والألحان ، أو أثير الصدى فى كهف الجان . فكأن فى خشبك الهامد أرواح معبد ، وإسحق ، وعثمان . أنت فردوس الروح . تنفحها بالنغم الرنان ، بأندى على النفس من نفحات الجنان ، وشعر العرب والبريطان . ليس فى العالم ما يماثل نطقك بعد السكوت إلا تنفس الروضة فى قبلة الشعاع ، واستيقاظ المليحة فى لثمة الملتاع .

يا أفصح الناس ! اذا أفحم الحزن الفصحاء ، وألجم الفرح البلغاء ، أى كربة جثمت على النفس كأنها الموت ،

فلم تطر على ريشتك الى حيث لا تعود • وأى معنى عجز البيان أن ينسج له ثوبا كفوءا ، فلم تبرزه أنت فى أشرف لفظ ، وأشرق ديباجة •

بك يستجير الحب والذكرى ، وإليك يهرع الحـزن بصدره الحرج ، يستوهبك دمعة حارة •

صوتان يلبيان دعوة الملهوف اذا خذلته سـائر الأصوات : صوت الله ، وصوتك أيها القانون• فرحمك الله بما لا تزال ترحم عبيـدك ، يابيت الأنس ، ودار السلام ، بل لأنت ذاتك السلام والأمن « على أطراف الأنامل » كما يقول الغربيون • أو «على حبال الأيدى» كما يقول العامة • أحزن أصواتك مفرح •• وأرفع أجوبتك متواضع سهل • لا زلت سهلا المحائر الشريد ، وأهـلا •

المـــــرآة

نافذة تنظر فيها أجساما تركبت من « لا شيء » ، يطل فيها الأحمق ، فكأنها تقوم بين خيالين أو خرافتين . والحسناء ، فكأنها باب الجنة . والمغرور ، فكأنهـــا نافذة المستشفى ، والمريض المضمحل ، فكأنهـــا باب القبر . والمتوحش ، فكأنه يبصر حلما يجـول فى نوم زجاجى ، ويحسب الماء وينصب قامته ويتماسك ، أو أن قطعة من البركة انسلت تركب الريح ، ثم فارقتها الروح فجمدت ، ولو مستها يد الله لجاشت وعاشت .

وأول من استعمل المرآة هى الطبيعة ، إذ صاغتها من الماء ولفت حولها وشاحا من العشب الملمع ، أو نطـاقا من النبات المرصع . ثم وقفتها على شعوبها من أسراب الظباء الى أسراب القطاء ، وأوراق الغاب الى أوراق السحاب ، ونجوم الروضة اليانعة الى نجـوم السماء الساطعة .

إذا النجوم تراءت فى جوانبهـــا
ليلا ، حسبت سماء ركبت فيهـــا

نفذت مرة الى صفحة ماء يلفها غشاء من النبات ذو خروق تنسل منها أقلام الضياء ، فتكتب على الصفحة المائجة آيات تفسيرها عند الشمس ، فكنت أحسب أن هذه المرآة المائية ذهن صقيل فى جسم الروضة ، تتجلى على صفحته الصافية الصور السماوية والمعانى العلوية.

وما سر الحسناء كمرآة ، تصف لها جمالها بأبلغ من شعر الشـــاعر وصور المصـــور ، اذ تبصر حسناتهـــا ، فتدخل عليها ماشاءت من الإصلاح . تزيد فى ســـحر اللحظــــات ، ونور الابتسامات ، وخفة الحـــركات والســـكنات ، وتخترع صـــنوفا جـــديدة من الحسن والرشاقة ، فكأن المرأة مدرسة للحلاوة والفتنة .

لذلك كانت البركة من أول ما رأته حواء حين خرجت من عالم الأبد . قال ملتون صاحب «الفردوس المفقود» على لسان حواء :

« لما انتبهت من الأبدية وجدتنى على بساط الزهر . ألتحف الظلال الخضر . أعجب كل العجب : من أنا ، وأين أنا ، ومن أين جئت ، وكيف !

وكان على مقربة منى كهف يخر بالماء المنبسط ، بركة فسيحة كأنها السماء . فقمت الى البركة خالية الذهن وأطلت فيها . فلما اثثنيت ظهر فى لألىء الماء شبح ينثنى إلى . فأجفلت ، فأجفل . ثم رجعت مسرورة بذلك ، فرجع مسرورا . يقابل نظراتى اللينة بدلائل الحنـان والحب » .

الـذهـب

الذهب : سلطان الوجود ، ومدبر المقــادير ، وإنى أبصر فى الغنى الجالس على خزانته : « ملاكا يمتطى صهوة القضاء ، يصرف عنانه كيف يشاء ، يدبر الكون من وراء الستار ، كما قيل :

تراه عن الحرب العــوان بمعزل
وآثاره فيهــا وإن غاب شــهد
كما احتجب المقدار والحكم حكمه
على النــاس طرا ليس عنه معــرد

بيد من زمام الأمور ، وأعنة المقدور ؟ بيد من ميزان الوجود ورحا الحرب ذات الوقود ؟ من صاحب الحادثات العراض الطوال المحركة ألسنة الصحافة بالخطــل والفضال ؟ من باعث اللذة والألم فى هيكل الزمان ؟ من مرقص السياسة فى كل مكان ؟ من ذلك العلى القدير ؟ هو رب القناطير : روتشيلد • الذى سماه « بيرون » :

نابليون المتنكر ، أو خيال نابليون •

لماذا سمّى البخيل لئيما ؟ أليس له من الزهد والورع ما يخجل الراهب في عزلته ، والناسك في وحدته ؟ أيكون التقشف في عباد الله المفلسين داعى الإطراء ، وفى عباده المكثرين داعى الإزراء ؟ إن أولى بالثناء : إنسان تقشف طوعا لا قهرا ، وتورع حسبة لا قسرا •

يقولون : الشاعر من يغذو الخيال بنفائس الكون كالذهب وما شاكل • فماذا تسمى الذى يغذو بهذه النفائس جوف الحقيقة ؟ أليس هو الشاعر الحقيقى • اذا كان شعراؤك المفلسون شعراء الوهم الكذاب ، والبرق الخلب والسراب •

أى الرجلين أربح صفقة وأرجح سهما : الناظر الى كنوز الذهب والجوهر فى صحيفة ٣٥٠ من رواية مونت كريستو • أو الناظر اليها فى كنوز الغنى ؟ الذى يبصر الكنوز فى هيئة حروف مصنوعة من الحبر قد حرمت من حسن الخط وجمال التركيب مايجمل « جاجب وطاطب » فى كراسات الثلث • أو الذى يبصر الكنوز فى سجلات الخزائن مدونة بأحرف السناء الساطع كأنما كتبتها أشعة الضحى بلعاب الشمس أو خطها القلم

العلوى بمجاجة القمر ، أو رسمتها يد الله بقبضة من نور العقول وضياء الأفهـــام ؟ تأمل ودائع الكنوز ، واتل قوله : ارجـع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » وأورد عينيك مناهل الذهب السنى، والجوهر البهى . وانظر كيف تبعث الأشعة الإبريزية من ظلمات الكنز . ويصب الماس نوره الأتم . ويطرح الزبرجد من شعاعه الأخضر الرقيق ظلا يلطف من لهب الياقوت ويكفكف من وهجه . هنالك تروى العيون الصادية رونقا وماء ، وبهجة وبهاء .

هنيئا لك ياصاحب الكنز ماغمرك من النعم الجزيلة والمنن الجليلة . لك الضياع على اليمين والشمال . ولك الجوار المنشآت كالجبال . تفرغ فى حقائبك ماشئت من ذخائر صنعاء ، واصفهان ، وسمرقند ، وكرمان ، وبيكين ، وتابريز ، ولندن ، وباريز . لمن غيرك تضج العربات بالأحمال ، وتعج تحت الأثقال ؟ لمن غيرك يخجل الكرم فى لثمات الشعاع، ومن غيرك يصلح كيلاره قصرا للملك ذى الأتباع ؟

يا صــاحب الذهب . ذهبك . مشــتق من : ذهب يذهب ، بمعنى : مضى ونفذ . وكذلك يذهب الذهب

بصاحبه فى كل شيء : مضى فى الماء والسماء ، فى سم الخياط ، ومن بين البلاط مع الكحل فى الجفون ، والنوم فى العيون ، والشك فى الظنون .

ما أولج الذهب لكل باب ، وأهتكه لكل حجاب ، وأقحمه لكل سور رفيع ، وسد منيع . أى خصم ثاقب البيان ، عال على الأقران ، فى حصن من الحجة حصين، وركن من الحق ركين . لم يهجم عليه الذهب مع الأنفاس ، ويبلغ منه مبلغ الكاس . وهو الجنيه اذا رقصت للعنيد بروقه ذابت فى وميضها ثلوج عناده . بل ذابت فى وميضها عزيمة القائل :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ

ـل على أننا نذيب الحديدا

وبريق الجنيه الأصفر ، أسحر من بريق الطرف الأسود والأزرق ، والشفق الأصفر ، أحلى من الليل الأسود والفجر الأزرق . وإن فى صفرة العاشق لجمالا حزينا يترك فى فؤادك ألما لذيذا ، ولذة أليمة ، وعذابا عذبا .

لذلك قال بعضهم : الحجة الصفراء (الجنيه) أعلى من الحجة البيضاء ، بل لا يبعد أن تكون الحجة الصفراء هى العامل الأول فى فن السحر . وقد بلغنى

من ثقة : أن رأس عصـــــا موسى كانت من الذهب ؛ وكذلك كان لسان الحية التى خدعت حواء ؛ وأن فى الأمراض ما يظنه الأطبــاء الداء العضــال ، ولو وفقوا لعلموا أن فى « أقراص الذهب » الدواء الناجع . ومن مزايا الذهب أنه من المنـــومات ، ولقد جـربه الناس فوجدوا أنه ينيم صاحب الثـــأر عن ثأره ! وحسبك بالدية . وهو ينيم الرجل عن أخيه .. وأمه وأبيه .. وصاحبته وبنيه . وأحسن البنج ما دخله الذهب . وقد وجد أن الذهب يشتمل على مقـــدار كبير من « أبى النوم » . ولذلك ترى أن أكثر ماينمو أبو النوم على مناجم الذهب .

وحسب الذهب فخرا . أن اشتق منه صفة تستعار لكل ما يبلغ منتهى النفاسة .. فيقال : العصر الذهبى .. والساعة الذهبية .. والصوت الذهبى .. والنغمة الذهبية .. والوتر الذهبى (مع أنه مصنوع من أمعاء الحيوان) ، وقال الشـــاعر « يتس » : « والموسيقى بلسانها الذهبى ..تئن كأنها إله يتألم » .. يشير الشاعر الى نغمة الصبّا .. الجامعة بين الحزن والشجا .. وبين براعة التأثير وسطوة السلطان . وقال الشاعر « بارنز »

يذكر ليالى الوصل : « إذ ترفرف على رءوسنا الساعات الذهبية بأجنحة الملائكة » . والبحترى وصف ساعات الصبا والصبابة بالذهب .. فقال :

لم يرو ماءالشباب ومالنجلت   ذهبية الصبوات عن أيامه

ومن الدليل على سبق الذهب المبين واستعلائه على الأقران .. أن أغلب الناس اذا سقطت أسنانهم .. فقلما يستبدلون بها أمثالها ، أو ما اعتادت الشعراء أن تشبه به الأسنان الجميلة مثل : اللؤلؤ .. والفل .. والبرد . بل يستبدلون بها أسنانا ذهبية . مع أن الفل والبرد أرخص . والفل أفضل من حيث إنه يعطر الكلمات قبل خروجها الى السامعين .. لا سيما اذا كانت خبيثة المنبت . حتى تكاد المناديل تسبق اليها الأسماع شغفا بالأرج الذكى .. والعبق الأطيب . والبرد ، بلا جدال أشهى فى الصيف وأشفى . ولكن هذه لذات سطحية حسية . ولذة الذهب نفسية عميقة تخالط الروح فى مذاهبها . ولو أن البحترى أبصر غايته تبتسم عن أسنان ذهبية ، لما هام فى الثغر الذى وصفه ، فقال :

كأنما تبسم عن لؤلؤ   منضد ، أو برد ، أو أقاح

يا ليل

لفظة تكاد لفرط الحلاوة تكون نغمة . تشرق على الصحيفة كالقرط على سالفة الحسناء . وكالنجمة على خد الليل . لفظة تصبح ريشة العواد أحق بها من ريشة الكاتب . تنقشها فى جوانب السمع بحروف النغم الشجى ، والصوت الغنى ، لفظة لا يزال بها لسان المغنى يمطها ، ويمدها ، ويعطف منها ويلوى ، ليبطن بها دهاليز الأذن وأزقتها التى يضل فيها الحق ، ويهتدى الباطل .

نداء لليل ، تحتها معان جمة فى طى الإبهام ، لو فصلت لما وسعتها صحيفة الليل . فيها معانى الترحاب ، والأنس ، والطرب والمرح .. والشكوى .. واللهف .. والوجد .. والجوى .. والوحشة ، والاستغاثة ، فهى سلك العواطف الجامع لفرائدها ، فكأنها لفظة : « يارب » .

لفظة تمر على أوتار القلب الموسيقية فتخرج من الشفتين لحنا زلالا ، ينصب فى أذن الليل القفرة الموحشة ، فيوقظ ما استتر تحت الظلمة من أسراب المنى والآمال .

لفظة يحجزها الفم فى أشداقه لا يكاد يتركها كأنها تفاحة الجنات أو تفاحة الوجنات . وكأنها اسم الله فى فم المسبح ، أو « اسم الفاعل » فى فم النحوى ، أو اسم المليحة فى فمك .

والليل أحلى ما تغنى به المرء وترنم . ولم أر أروع من جلاله ولا أسكن من هدوئه . فياله من جمال ذائب ، وحسن صامت وسواد منير . يذكرك جواهر الماس فى شعور الحسان ، ولآلىء الندى على أمواج العشب الأخضر . جمال فى جلال ، يتركان الليل كالمعشوق الذى قيل فيه :

أهابك إجلالا وما بك قدرة

على ، ولكن ملء عين حبيبها

فحبذا الليل : مريح الأبدان ، ومروح الأرواح ، ومزيج الأحزان ، ومطوح الأتراح ، تشرب النفس من حياض هوائه الباردة كوثر الروح والراحة . وذلك هواء

تفجرت فيه عيون الأمن الدائم ••• والسلام الأبدى •

ياليل ! علمتنى حمل الخطوب والاضطلاع بالدهر • صاحت الأشـجان ؛ فوضعت على شـفاهها أصبعك ، فصمتت • وكذلك يرتاح من أشرق عليه من وجهـك السماوى مليون عين للمنى والأمل ! وهى النجوم ينابيع الرجاء والأمن •

أيها البحر المظلم عـديم القرار ! الذى تتضـاءل فى أعماقه العوالم •• الهائلة كأنها الدول فى باع الدهر •• أو العوائق فى عزيمة البطل ، أو الأزمات فى قدرة الله والسيئات فى رحمته • إن فى جزائرك التى تغمـرها جزيرة صاغها الله من العـذاب الترابى ، لا تزال تلد صلصالا مشتعلا ، تلك هى الدنيا وأبناؤها التى تحترق تحت طوفانك ، كالسفور تحت الماء • إنى ، على كل حال ، واجد فى ذلك الطوفان بردا على عظامى الملهبة وسلاما •

أيها الليل ! أنت للنوم قصر صامت عديم النهاية •• يملؤه النوم •• والحى الذى لا ينام • والنوم من ذلك القصر الشامل •• يذر على الكون أحلامه التى صاغها فى مخبئه النهارى •• من نفثات السحر •• وأضغاث

الخيال ، فى هيئة الزجاج الملون •• وأقواس المطر •

فى جوف الليل • وقد ماتت الإنسانية إلا نفس يطفو على متن القضاء ويرسب • وجاش الكون بالحياة حتى كاد يتكلم •• أى شىء أحلى من عشرة الإنسان لذلك الوجود الهائل ، ومناجاة هذه الروح التى عرضها السموات والأرض ، تلك الروح ، هى : الله • ومن أدرك هذا السر المكشوف ، وذاق لذة الحضرة المقدسة •• فكيف تناله أكدار الحياة •• وصغائر الهموم • ومن كان شعوره لله ، لم تجد حقائر الحياة فضلة فى شعوره• ومن عرف الله •• لم يعرف الشقاء •

الوحـــدة

الإنسان نوع من السلحفاة .. يكمن من نفاقه أو جموده فى مثـــل ذلك القشر الصفيق . وكم رجال تعاشروا دهرا ، ثم تفرقوا وهم أجهل الناس بأصحابهم، فكأنهم ولدوا فى صناديق مقفلة . وكأن الله حين خلق البشر نثرهم فى بحر الحياة جزائر بددا ، لذلك سميت الحياة : « أرخبيل الشقاء » .

جزائر الإنسانية ! هل أنت إلا أفران يلتهب فيها غليل الشهوة والضغينة والكفر . اذا فطر العطش أفواهك المحترقة تعللت بماء ذلك البحر الأجاج .. أو بمـــا لا يزال يخدعك من المنى الجهام والأمل الخلب .. وقد تحلمين بالقطر العذب ، والندى البارد .. ثم تنتبهين له دمعا مرا حميما . والإنسان مذ كان سعيد الحلم شقى اليقظة .

الحياة غربة . والإنســـان من الناس فى وحشة .

والبلد الرحب ، أضيق فى عين الغريب من صدره .
ولكن الوهم أوسع من البلد الرحب . والى الوهم يرجع غريب الإنسانية ـ ابن آدم ـ فيمرح منه فى أعرض من السماء وأطول .

الوحدة فى العمران ، والعمران فى الوحدة . وقد تنام الحواس بين الجماعات ، وتستيقظ فى العزلة . وقد تكون الوحدة أملأ بالأصوات والصور من المجتمع .
والوحيد يسمع كل صوت كأنما نصب فى ملتقى الأصوات ، أو كأنه يجلس من وحدته فى أذن ملاك ، تنقل الى الله وساوس الشر ومغائب النفاق .

يصر الباب فى سكون العزلة ، فكأن الرعب نفسه يصرخ ، ثم يتساءل الشك : أباب يصر ، أم عفريت ينبح ؟
من يقرع النافذة ؟ طائر لا ريب . لقد حسبتها أصابع ميت أكل التراب أصابعه .

من يصيح ويعول ؟ يائس يستودع الله أمله وعقله ؟ بل الريح .. وهو أيئس ما هام على ظهرها . يصيح ويبكى على الجمال المبتذل .. والحب المخدوع .. والفضل المجهول .. والكرم المقبور ، على غرور المرء وآلام الإنسانية .

نظـــرة

صادفتنى على مضيق الحياة ، ورمقتنى • لا وربك ، يا غادة لغير ألحاظك خلق الله ذلك الفؤاد••وما لأشعتك فى مرقص الألم مرقص • ولا كان فى قدرتك مزاحمة الشقاء على بيته وموطنه •

لقد طالت الصحبة بينى وبين الشقاء •• حتى نشأ ثمة نوع من الود الكريه •• والوفاء العابس •• وقد يحن العدو الى عدوه •

أيتها الغادة ! لا ترفعا ، انصرف عنك ولا كبرياء •

ولا جمودا عن حسنك ، ولا جفـاء • بل ان جبار اليأس قد خرج بفؤادى عن دائرة نفوذك ، وعلا به على بسطة سلطانك • ولو أمكنتك الغزوة لما ألفيت فى قلبى ما يفى بنهضتك أو يجزى همتك • ولو كان لدى من أسباب الهناء ما يعجبك لناديت :

ياظبيةالبانترعىفيخمائله ليهنك اليوم إن القلب مرعاك

ولو بقي في دموعي فضلة ، لصحت :

الماءعندي مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمعي الباكي

ولكنى أنشد من الدمع المستحيل وأرجوه فى قفار الحياة ، كما يبتغى الماء الملح فى الفلاة .

أيتها الغادة ! كل ما فى الوجود يذوب فى ألحاظك إلا يأسى فانه كالثلج الجامد على رأس الطود ، تغازله الشمس طول الأبد فلا يشعر .

وقفت منى على قيد مترين ، وبينى وبينك ما بين إبليس والرحمة . فكأننا نجمان تجاورا فى عين الناظر ، وبينهما بعد السماء عن الأرض ، وكأنك تنظرين الى ميت يفصلك عنه الوقت ، والوقت ما لا يقدر .

لم نلتق من قبل . ولا لقاء من بعد . فكأن كوكبين أراد الله لا أيتقابلا فى عمر الكون الا لحظة . لهف نفسى ألا يكون نصيب روحينا فى اللقاء الا دقيقة من « الوقت » ، ذلك الوقت الذى تغرق ملايين الدهور فى قطرة من عبابه !

ستعدينني فيمن أسرت اليوم ، حين تنثرين الأرواح من خريطتك ، كما يفعل الصياد . لم تبصري فى سوى

جسم كسائر الأجسام . لشـــد ما غرك التراب (١) ياغادة ، والتراب غرار ، ولو تنظر الروح من خــلال البدن ، لراعك منى مايروع الذى يفجؤه الأقيانوس الأعظم من ثقب الجدار القـديم . لهف نفسى إن لم تنزلى بروحى الزاخرة فتخطرين عليهـــا كأنك السفينة الأنيقة تحمل المسك والعنبر من بلاد الهند ، والياقوت، واللؤلؤ .

إذن لمهدت لك وسط العواصف المتصارعة مسلكا فى هذه الروح الثائرة سهلا ذلولا ، يجرى بك على جزر اللذة الى غاية السعادة الأبدية . أعرض على عينك المشرقة جانبى المشرق وأحفظ الجـانب المظلم لعين العبرة والندم ، كأن نفسى نحلة ذات كأسين : واحد يصب العسل فى ذهنك ، وآخر يدفن السم فى سريرتى. وكأنى سراج لك ثورة اللامع وفى ضمبرى حرءه اللاذع .

ما أسخاك بالنظرات ، ياغادة ، ترمينها حيث لا تطلبينها . كأنها القطر من عين السحابة الوطفاء . ويا حبذا لو تقتضين عندى تلك النظرة الغـالية ! بل خير لى أن

---

(١) يعنى الجسم .

تتركيها ملاكا ساحرا يؤنس وحدتى • وما رأى الناس قبلها ملاكا ساحرا !

هل تذكرين هذه اللحظة فى مستقبل الزمن ؟ بل كيف وكل لحظاتك هكذا ، وتلك شيمة الدهر عندك • أنت أرق من الماء ولا كتابة على الماء •

أما معى فستكون هذه اللحظـــة : روحا حلوة فى جحيم اليأس ، وصدى عذبا فى أذن الوحشة المقفرة •

أيتها الفتنة المشرقة ! اذا اكتحلت روحى بظلمة البين المتكاثفة ، جرت عليها من روحك القــوية هزة ترجف صميمها كمــا ينبض فى قوة الشمس المخلوق الساكن كبد الثرى •

أيتها الفتنة المشرقة ! لطالما تلمسك الخيال ، فلمــا أطلعتك الحقيقة تواريت :

كالشمس فى طى الغمــا م نهــارها تتغيب
حتى اذا انهزم الســحا ب سطا عليها المغرب

السماء على الأرض

وما من ذرة فى الكون الا ولها روح يناجي الروح الأبدى . وما تحركت فى الوجود جارحة الا لتسبح بحمده . وأجمد ما فى الكون انما أصاره الى الجمود منتهى الرقة ، ومن فرط الرقة الجمود . كما أن من فرط الضياء الظلمة . ومن فرط الظلمة الضياء .

والروح الأبدى يتفجر فى ذرات الكون ، ويجيش فى دقائقه ، وتبدو له الحركات فى خفق الأمواج ، الى خفق السراج . واهتزاز الزلزال الى اهتزاز السلسال . وليس بقعة خرست أصواتها الا نطقت بها ألسنة الحال. تقرع مسامع النفس بزواجر الوعظ . وتصدع الشك بأدلة التوحيد .

الجماد : جامد فى عين الجامد . حى فى عين الحى . حساس قد وقف نفسه من شدة الشعور . وقدما كان

فرط الشعور مقص النفس وداعى الجمود • والحركة والقلق ، إقذاء تغرق فى عباب الاحساس •

ألقنى فى أحضان الفضاء بين الأرض والسماء • ترجع الحوت المخنوق الى بحـــاره • والنسر المرعوق الى مطاره • لا حبذا الإنسانية قفص الظلم المخضب بدماء الحرية يناهض على قضبانه جناحها ، وتدمى جراحها •

إن الخلوة فى الفضاء لتجرى بين الإنسان والخالق من تيار الحب ما أنضبته سمائم الفجور ، فيهب فى الإنسان ذلك الإحساس الهائل الذى تستفيض أمواجه فى الروح ، حتى تغسل سواحلها الفانية ، وتطهر ذلك التراب من مقاذر الشهوات ذلك الاحساس نفحة من روح الله • هو نغمة فرعية ، تهدى النفس الى الموسيقى الكلية الأولية الأبدية ، التى هى نظام الكائنات ،ولباب الوجود •

ألقنى على صدر الطبيعة ، تلق الطفل العطشان على ثدى أمه •

هنيئا ذلك اللبن المقدس ، يخلع على السريرة بياضة، وعلى الذهن حلاوته • وحبـذا من تلك الأم الرحيمة عطفها علي الطفل الواهن ، وابتسامها اللين • بل حبذا

غضبها المظلم وثورتها اللجبة ، فانه دليل الرحمة وعنوان البر . ولا خير فى من لا يغضب .

ليس فى حجر الطبيعة وحدة . ليس فى الصخور تتفجر بالحياة السيالة وحدة . فى أحشاء الحدائق تشتبك شرايينها الخضر وحدة . ليس فى زوايا الغابات تكمن ثمة ظلالها وتخف أصواتها وحدة . ليس فى ثلوج الجبال شابت فى تقوى الله رءوسها وحدة . ليست فى تآلف الموجودات وتعاطف الكائنات وحدة . ليست الوحدة فى تعانق الأشجار وتلاحم الأنهار ؛ ولا فى اختلاط الأصباء ، وارتداء القمم بالسماء ، وتمازج الأمواج . الوحدة ليست فى تصابى الأزهار ، وذوبان الأشعة على صدر النهار ، وفيضان القمر على البحار .

إنما الوحدة فى معترك الحياة : بين القلوب الجامدة ، والأذهان الخامدة . فى الضجة الصماء ، والصدمة الهوجاء . تجرى بين الزميلين العداوة كأنها فى عين الوهم والترعة الحمراء . لا تفتح الحواس على غير الكذب والرياء ، والظلم والشقاء .

الطبيعة ! أنت بيت الله ، ومسبح الملائكة ،والهيكل القديم . أنقذنى من ضيق المساجد وأقذف به إن

استطعت وراء المادة أتحلل فى ذلك السر • وإلافحسبى الانغماس فى ضمير الفضاء ، أنظـــر الى الخالق حتى تسقط حواسى ، وأتباخر إلى سحابة وجد تهيم فى حب الله • أو أذوب الى دمعة كبيرة تستغفره بفصاحة حارة ، وتتلألأ فى نوره استبشارا بالعفو السريع والرحمـــة العاجلة •

ما ذاق حلاوة الحياة مثل الناسك فى الخلاء • هذه حلاوة خالصة ، وحـــلاوة الدنيا مقرونة بإبر الشـــهوة والألم ، واللوعة والندم ، والحـــــرمان والعـــدم • الإنسانية زوبعة تدور بينها كالطـــاحون العنيفة ، تطير بهم فى سرعة الريح ، وهـــم ثابتون مكانهم ، أو هى شلال يهوى بهم من أعلى الى أسفل •

أما حياة العـــابد الخلوية فجنـــة بين الأبد والأبد ، نسميها روحه أو هى جـــدول رنان يرقص على النغم المقدس وينصب فى السماء •

فذرنى بين العناصر أجش طربا فى طربها الجائش ، وتأخذنى فى أريحيتها الأريحية • وأشرب بالكأس التى يشرب بها الكون فأنثنى فى انثنائه • وأنادى البـــان المائس :

يا بان وادى الأجرع هل ملت من طرب معى

وأندمج فى الطبيعة فكأنى نبت مع الشجر . أيها الضائع بين أعداء فى صورة أصدقاء ! أيها المسلوق على جمر الشقاء أيها الملتهب المحموم ! انشر جناحيك ، وتبوأ فى دولة الفضاء عشا ملؤه الروح والريحان ، وتقلب فى حجر الطبيعة المبلول ، وأطفىء حرارتك فى دمعها الرطب ، ونم حيث تثنى فوقك جوانحها الباردة وترسل عليك أنفاسها الحلوة ، فتفتح عينيك على جو من الحب والتقوى . وخرير الماء يهمس : « إنك بالواد المقدس » . نعم إنك بالواد المقدس تتفيأ ظلال الجنة . وتلمح خطفات السناء الأسمى . وتسرق أذناك مناغاة الحور ووسوسة الكوثر . مشوانا الأرض ، ومثواك « السماء على الأرض » .

الـدمـوع

مطافىء الحزن .. كلما أسرع لهيبه أسرعت بوادرها. وكلما عاد عادت . فسبحان من جعلها عيونا ثرة . وهيأ لكل آفة ضدها .. ليستقيم ملكه .. ويتم أمره .

بكى أحد الحكماء على قبر ولده ، فقيل له : « كيف تبكى مع علمك أن الحزن لا يفيد ؟ » . قال : « ذلك الذى يبكينى » .

كفى حزنا .. ان الحزن لا ينفع .

من المغالطة أن تحاول بالتمويه تحريم البكاء .. وتأمر الناس أن يسدوا ينابيع الدمع ما فجره الله فى عروقهم :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثـا
الله أدرى بلوعة الحـزن

إن البعض ليرحب بالدموع ترحاب المجدب بالغمام .

فان الحزن العديم الدموع كالصحراء العديمة الماء . والحزن الذى يبخل بالعبرات كالمحروق الذى تدهيه النار أن يذهب الى الحوض . لذلك كان أفضل الحزن وأرشده مافتح أقفال الدمع فتواصلت سجامه .

الدمعة تذهب اللوعة .. قال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة : « إنى لأجد فى كبدى جمرة لا تطفئها إلا عبرة » . فقال عمر : « اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر » . فنظر الى رجاء بن حيوة كالمستريح الى مشورته . فقال له رجاء : « أفضها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأس ، فقد دمعت عين رسول الله على ابنه ابراهيم وقال : « العين تدمع ، والقلب يوجع » . فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى إربا . ثم أقبل عليهما ، فقال : « والله لو لم أنزف هذه العبرة ، لا نصدعت كبدى » .

وربما كان لطليعة الدموع من شدة الوقع ما لطليعة السيل والخيل ولكنهما على كل حال برد على الغليل وسلام وفيها منجاة من جفاف الحزن ، والأسى اليابس الذى يترك المرء عرضة للذبول فى قفار الشقاء .. والدمع مهما اشتد انطلاقه فمآله الى السير الرفيق

والانسجام اللين . ثم يستقر ولكل ثائرة قرار .

والدموع تغسل الأشجان كما يغسل السحاب الجدب، وتذيب أملاح الهم ، وتذهب بمرارة الأسى ، كأنها المصارف فى التربة الخبيثة ، وهى التى تغلب الحزن ، وتقهر الموت نفسه ، وتسلب من أفاعى الذكرى إبرها ، وتترك فى زعافها عسلا .

والدمع ليس بقاصر على الأسى . فقد يكون من الرقة ، والحنان ، والرحمة ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والندم ، والتوبة ، والطرب ، والفرح . سل الأم التى تضم رضيعها : لماذا تبكى ؟ والأب الذى يستقبل ابنه العائد : لماذا يبكى ؟ والرجل الذى يسمع الغناء : لماذا يبكى ؟ والعاشق الذى يبصر القمر : لماذا يبكى ؟ سل الشاعر الذى ينظم القصيد أو ينشده : لماذا يبكى ؟ . والعروس التى تزف الى قرينها : لماذا تبكى ؟ .. والكريم الذى يأوى البائس تحت سقفه ويشاطره طعامه : لماذا يبكى ؟ . والعدو الذى يصالح عدوه : لماذا يبكى ؟ والسائح الذى يسمع تسبيح العابد : لماذا يبكى ؟ الدمع عنوان الشعور ودليل الإحساس .

ولا أحسب عبرات السرور الا شكرا محسوسا لنعمة الله وحمدا ملموسا . والدموع فى خدود الحسان من أملح المناظر . اذا كانت للفرح فبرقت فى لآلىء الوجه المشرق .. رأيت الورد يجلو الندى فى بهجة الصباح .. واذا كانت من الشجن ، خلت النرجس يبكى فى ظلال المساء .

ليس فى الكون ماهو أفعل فى القلوب من منظر العبرات ، والرجل الذى لا تحركه العبرات مظلم الذهن ، راكد النفس ، لا يصلح إلا للفساد والخيانة .

وقد أظن أن الرحمة لو تمثلت لما كانت إلا دمعة . قال الشاعر « توماس مور » : « بكت الفتاة على قبر حبيبها ، ونور القمر يتوسد فرش الثلج ، فانطلقت دمعة حارة ، جمدها الهواء القارس .. ولبثت طول الليل حتى برق الصباح .. فبرقت فى شعاعه وكان أحد الملائكة قد فارق فلكه يرفرف على عظام الموتى .. فأبصر تلك الدمعة الجامدة .. فحملها الى « الرحمة » ذات العين الندية ، وجعلها حلية لتاجها ، وزينة سنية » .

أما دمع التوبة فطهور النفس ، يغسلها من شوائب

الإثم ويضرح عنها إقذاء المنكر • ويتقدم التوبة ، فهو لها كالوضوء للصلاة ، ولعل هذا النوع من الدموع أجلها وأشرفها • واذا كانت العبرات المسكوبة لغرض دنيء تذهب فى الأرض هـــــدرا ، فان دموع التوبة تتصاعد الى عرش الله بخارا طاهرا •

الدمع ، على كل حال ، جلاء العين يذهب صدأها ويصقلها • والعين بعد البكاء أصفى رؤية وأثقب بصرا، وأهدى الى مواطن الحق •• وأنفذ الى مكامن الحكمة، وأعود على صاحبها بالإيمان والتقوى •

أنعم الناس بالاً

فى قصة المدينتين ، للكاتب « ديكنز » منزل قائم فى زاوية فى أحد أزقة لندن ، وللزاوية شـــأن من أغرب الشئون ، وذلك أنه ليس من قدم تدب فى الشارع الخارج الا هاج لها صدى فى تلك الزاوية ، حتى يخيل للساكن الجديد أن جميع المارين فى الشارع يقصـــدون المنزل ، فيقوم على ساقه ينتظر الزائرين ، ولا يطرقه أحد . هذا خداع من الزاوية ، ومخالفة بين الواقع والمدعى . حدثنى أحد الأصدقاء ، قال : « إنى وسط إخواننا الشبان أشبه الناس بساكن منزل « ديكنز » لا يزال يطرق مسمعى أصـــداء المودة والغيرة ، وحب التآلف والتضامن ، ثم أنتظر الشواهد والبراهين على هذه الدعاوى ، فلا أرى شيئا ، ولا يبهج ناظرى ظـــل يتقدم أحد هذه الوفود التى تقطعت فى انتظارها أسباب

الأمل . وأحسب أنه لن يجيء المنتظـــر حتى يئوب القارظان .

إن حالة الإنسان لأنطق بمكنون صدره من لســان لا علاقة له ألبتة بالسريرة ، بل الحال هي الدليل الأوحد. فبماذا تشهد أحوال شبابنا ؟ تشهد لهم بخلو البال من كل كدر وشائبة . بال يضرب به المثـــل في النقـــاء والصفاء حتى جعل بعض الكتاب يقول : « في هواء أنقى من بال الشاب » و « فضاء أفرغ من بال الشاب » الى غير ذلك . تشهد الحال لشبابنا بالفرح والمرح ، والأريحية والطرب .

كلما نظرت أخي وابن وطني يسبح في سماء مرحه ويطمح في عنان فرحه . لم أتمالك أن أذكر ضده ونقيضه الشاعر « شيلي » . كان ذلك الملاك الكريم مع ثروته وغناه أشقى خلق الله . كان يتألم حافر المعادن في أقصى أمريكا . فيتوجع له « شيلي » على ضفاف اليايمس . وكان يستبد القيصر على عرشه فيهيج عليه « شيلي » في فرشه . كان يتوهم المظلوم والمضنى والبائس والحزين والخـــائب واليائس ، فيتوجع ويتحسر ، ويتحـــرق ويتضجر . رحمة الله عليك يا « شيلي » ، هل كنت

إلا فؤاد الكون الخافق ، ومدمعه الدافق • هل يصدق القارىء أن هذا الشاعر كان أغلب أيامه صائما • وأنه كان يخصص ساعتين من اليوم لتعهـــد المستشفيات وتمريض المرضى • بل هل يصدق أن « شيلى » أكبر شعراء البريطان فى القرن التاسع عشر ، وأحد أغنيائها وسراتها ، كان يعود أحيانا الى منزله حافيا ، أو عاريا من ردائه • يصادف أحد الشحاذين الحفاة العراة فتأبى رحمته وإيمانه إلا أن يؤثر أخاه الشحاذ بحـــذائه أو بردائه ، فكيف يرى ذلك إخواننا الشبان • ولا سيما الصغار الأحداث الذين اذا ضم أحدهم الرداء الجديد الى صدره فكأنما ضم عائدا كان قد قطع الرجاء من لقائه • ثم لا يلبث أن ينمو حسن التفاهم وصـــلات القرابة ، بين جسده الحقيقى والجسد الجديد المستعار ، وتفيض من مهجة الشاب الى الجلد الحـــديث جداول الروح والحياة فتسقيه وترويه حتى تنبت فيه العروق والأعصاب ويزكو نباتها ويعود الرداء أشد تأثرا بالألم من الجلد الأصلى ، ولا يزول ذاك التأثر بخلع الرداء وبعده عن الجسم ، لأن الصلات بينهما أشبه بالتيارات الكهربائية فى التلغراف اللاسلكى • فاذا كان الشاب

نائما وسط الرداء من معلقه (الشماعة) انتفض النائم مروعا مذعورا •

كيف يرى أبناؤنا الشبان عودة أكبر شعراء البريطان فى القرن التاسع عشر الى منزله حافيا ، هل يفعل ذلك أحدهم ؟ إنى أستغفر الله أن أشجع الشاب الصغير على تقليد الشاعر « شيلى » فانى أرى شبها كبيرا بين ذلك الشاب وبين أخيل أشجع شـــجعان اليونان • أعجز الفرسان قتل هذا البطل العظيم لأنه لم يكن له مقتل تفيض منه روحه إلا عضو واحد وذلك قدمه • وكذلك أرى أن الشاب الصغير متى لبس الحذاء المعروف انتقلت روحه إلى قدمه •

ما الفرق بين « شيلى » وبين فتياننا ، إلا أن الأول التفت الى أبناء آدم حتى نسى نفسه • وأن شبابنا التفتوا إلى أنفسهم حتى نسوا أبناء آدم • عاش « شيلى » فى أفئدة الناس ، وعاش أبناؤنا تحت أثوابهم ، فاذا جسرت أرواحهم على التطلع الى الأشياء لم تتعد محل « ستاين » أو « البسكليت » أو (دايفز براين) أو « كراسات الدراســة » (وهى أشنع الجميع) ، أو « الشيع ســــــلامة » أو « الفــوت بول » •

هذه مآلف الروح الصغيرة وأبعد غايتها . ياللعجب ! يتقلب أبناؤنا وسط الفراغ العديم النهاية بين العناصر الهائلة ذات البطش ، ويسطع لهم جمال الله وجبروته فى الطبيعة وفى نفس الإنسانية ، ثم تقف الأرواح عمياء وسط هذه العجائب ، لا تتحسن إلا على الجرعة واللقمة، وابتسامة هذا ، وركعة ذاك . لا غرور أن قال قائل : هؤلاء الناس لم يخرجوا من بيضاتهم ولن يخرجوا . نحن نلقى بيضاتنا الى المدارس لتفرخ ، ولكن هيهات ! ليس فى المدارس من حرارة التعليم العـــالى ما يفرخ بيضاتنا ، ولا أريد بالتعليم العالى : الطب ، والسياسة ، والاقتصاد ، والميكانيكيات ، ولا علاقة لهذه الروح ــ التى هى موضوع مقالتنا ــ بل أريد صفوة آداب اللغات التى ما برحت أصح غذاء للنفوس والأرواح . لا أمل لنا الآن فى الأفراخ مطلقا . طوبى لأجيال القرن التالى إذا أدركوا تحقيق ذاك الأمل . أبصرت مرة جمـــاعة يذكرون صديقا لهم مريضا .. يتحادثون فى شأنه .. وكل ما بهم يشهد أنهم أبهج الناس خواطر .. وأقرهم نواظر .. وأثلجهم صدرا .. وأبردهم جوانح . وكان يجلس الى جانبهم شاب صامت .. تتجلى فى عينه لوعة

الأسف •• وكربة الأمل المضمحل • قد بدا أثر التقلص في شفته العليا مما يشهد على احتقار الباطل وازدراء الخسائس • فالتفت إليه الجماعة واتهموه بقلة الاكتراث للمريض وعدم الاهتمام • قلت : « ياقوم أنتم أحق بالتهمة والريبة • ماذا تفيد كلمات الأسف إذا خرجت في أصوات الحبور والابتهاج • إن الأصوات لغة العواطف • اذا اهتزت في الفؤاد أوتار الفرح ••خرجت أصواتها أشبه بالهدير والصفير • واذا تحركت أوتار الحزن صدرت عنها رنات الحنين والأنين • فالأصوات عناوين القلب وشواهد النفس • وان لهجاتكم •• وحركاتكم •• وجميع أحوالكم ، تشهد عليكم بما تتهمون به أخاكم الذي كأنه الحزن مجسدا •• والأسف مجسما • بلى أيها القوم ! لأنتم أشبه بالورثة الذين ينتظرون في وفاة المريض الثروة وسعة الحال •• أو شبه بالأغراب البعداء الذين لا غرض لهم إلا الفاكهة واللهو •• فلا فرق عندهم بين الحديث في شأن المرضى •• وبين الحديث عن الخيل والفونوغرافات والأبسطة » •

رأيت بعض الناس ينفون عن شبابنا رجاجة الأحلام •

وليس ذلك بقاصر على شبابنا . بل تلك صفة الشباب :

إن شرخ الشباب والشعر والأسـ

ـود ما لم يعـاص كان جنونا

ولكنى رأيتهم يتهمون شبابنا بنمو العواطف وحدتها . مستدلين على دعواهم بما يحسبونه فى الشبان : سرعة انفعال وشدة تأثر لشئون الغير والأحوال العامة . وإنى لأوشك أن أعتقد أنه لا يكاد يوجد بين شبابنا من انفعل اهتماما بغيره . بل لا أنكر أن جميع العواطف قـد انقادت وخضعت فى شبابنا الى العاطفة الكبرى ـ شيطان النفس وآفة الإنسانية ـ حب الذات .

قال بعض الناس : « إنى لأحسد أغلب شبابنا على هذه المزية .. تفانوا فى حب أنفسهم .. فأمنوا أن يفتك بهم الغرام بأى شيء آخر . فأصبح أحـدهم كالعاشق الذى يجلس الى حبيبته وبصره أكثر ترددا الى صورة نفسه فى المرآة منه الى محاسن غادته ، يسعى الى الغادة .. لا من فرط الوجد والجوى .. بل لكى تشاركه الفتاة فى محبته لنفسه .. وتسـاعده على الإعجاب ببدائع جماله » .

ولقد أذكر ذلك العاشق كلما نظرت أحـد إخواننا

الشبان ، وقد انتظمت عليه ثيابه حتى لا تكاد تتوهم أنها أشياء خارجية أضيفت الى جسمه •• بل تحلف أنها نبتت من جلده ، كما ينبت ريش الطاووس أو أجنحة أبي دقيق ، أو حلل الزهرة الأنيقة •

أيظن القارىء أن مثل هذا المغرم بنفسه يجد فرصة يلتفت فيها الى شئون الغير !

مثل هذا العاشق يسمع بخراب هذا البلد ••واضطهاد ذاك الشعب •• وموت ذلك الصديق •• فيغلق دون النبأ الفظيع أبواب قلبه • تشرق فى عينيه أنوار الفرح لسلامته من تلك الغوائل التى اغتالت أولئك الأشقياء • هل جالت الدموع قط فى هاتين العينين ؟ نعم أيهـــا القارىء •• بل انسكبت على صحن لحم لم يتقن طبخه وتجهيزه • وفاضت على قميص أصابته قطـرة مداد • وعلى كثير من أمثال ذلك •

صفات الأستاذ

كثير من المعلمين تعييه الهموم المدرسية وأكدارها .. وتذلله حتى يفنى جلده .. ويبيد صـــبره . فيصبح عرضة للضجر وهـدفا للملل . والمعلم .. الذى هذه حالته .. بعيد من أن يرقى بالطلبة الى الدرجة المنشودة فى مراقى الفضل والعلم . المعلم الذى لا يبرح عرضة للغيظ والحنق .. لا يمكن أن تتصل بينه وبين طلبته علائق الألفة والمودة .. بل تحـول بينه وبينهم حجب الخوف والبغضاء وأسوار الهيبة والوحشة ، وينفرون منه كما تنفر الضأن من الذئب . وما سمعنا أن إنسانا أراد أن يعلم أحد الناس فائدة .. فاستعان على ذلك بالكراهة والوحشة والنفور .

إن العلم من ألذ مطالب الحياة عند من يطرقه من بابه ويأتيه من وجهه ، وليست لذة العلم عندى ، وعنـد

الكثيرين ، بأقل من لذة الموسيقى مثلا . لذلك كنت أرى أن الدرس المحكم ، الحسن الإلقاء ، هو مثل الغناء الحسن . وأن الأستاذ بين الطلبة ، كالمطرب البارع بين سامعيه . واذا كنا لم نر أبدا مجلس غناء يعلوه الكدر والضجر ، ويلتهب فى صدر مغنيه الغيظ والحنق على السامعين الذين يجزونه الكراهة والبغضاء ، فلماذا نبصر أغلب محال التدريس بهذه الحالة الكريهة السيئة ؟ ..

إن المعلم الذى تؤثر فى نفسه الهموم المدرسية تأثيرا يغلبه على أمره ، ويذهب بصبره وجلده ويحمله على ركوب الخطة العنيفة الهوجاء مع تلاميذه ، لجدير أن يوصف بصغر النفس ، وضيق الخلق ، وسفالة المذهب ، فأما الأستاذ الكبير النفس ، الواسع الخلق ، العلى المذهب ، فهو الذى ينفض عن نفسه هموم الحياة الدراسية ، كما ينفض الأسد عن لبدته قطرات الماء أو ذرات الهباء .

لا يقرن عمل الأستاذ بالفلاح إلا اذا جعل نصب عينه غرضا شريفا ، لا يزال يؤمه ويعمد عمده ، وهذا الغرض : هو فوز الفضيلة على الرذيلة . هو نصرة الحق

على الباطل . هو تصفية الحياة الإنسانية من شوائب الخبث واللؤم حتى تبلغ منتهى الطهـــارة والنقاء . ولا يكون ذلك قصد المعلم حتى يحسن رأيه فى الروح الإنسانى ، فيعلم أن هـــذا الروح قـابل لبلوغ غاية الكمال ، وإن بدا فيه أحيانا شىء كثير من الخبث . فاذا اعتقد الأستاذ ذلك ، كان حريا أن يتسامح كثيرا عن هفوات الطفولة ، ويتغـــاضى عن ذنوب الصغر . وجدير بالمعلم اللبيب أن يدرك بطء زوال العيوب فى الأطفال لأنهـــا عادات التصقت بأجسامهم وامتزجت بأعصابهم ، فهى لذلك بطيئة الزوال ، فاذا أدرك الأستاذ ذلك مال إلا الحلم والصبر على هفـــوات تلاميذه . وياحبذا لو استطاع الأستاذ أن يذكر عهد طفولته ،فيعلم شدة تمكن هذه العيوب من الأطفـــال . وعندى أن الأستاذ العلى المذهب ، الشريف الغرض ، يكون له من فرط حبه للنوع الإنسانى ورحمتـــه إياه تيار دافق ، يندفع بأرواح التلاميذ وعقولهم فى السنن الأقوم الى غاية الـــكمال . فاذا عرضت لذلك التيار الهمـــوم الدراسية ، أطاحها كما يطيح السيل الغثاء والجفاء .

إن التلاميذ فى الغالب نسخ من أساتذتهم ، أو هم

فروع منهم ، فاذا طاب الأصل كرم الفرع ، واذا خبث العرق لؤم الجنى . وأخلاق الأستاذ وعاداته وخواصه تنطبع فى التلميذ فيبديها من حيث يشعر ولا يشعر . فما أعظم أن يكون الأستاذ مجلى لمكارم الأخلاق ومظهرا لمحامد العادات ، فيجىء تلميذه صورة له ونسخه منه .

وقد يظن بعض المعلمين أن اللين والدماثة مدعاة الى استخفاف التلاميذ به . وأن الشدة والجفاء سبب الى احترامهم إياه وتبجيلهم له ، وإنما يحترمه التلاميذ ، أو يحتقرونه ، لمذهبه فى التدريس لا لشخصه وصورته . على أن البشر والطلاقة أدعى الى الاحترام من العبوس والغلظة اللتين هما أشبه بطباع الوحوش منهما بأخلاق الكرام الأخيار . والرفق ، على كل حال ، أمضى نفوذا من العنف الذى لا يلتجىء اليه العاقل إلا عند الضرورة .

معاملة الأستاذ للتلميذ

لا يزال الأستاذ يحاول أن يوقع فى اعتقاد التلميذ أنه عليم بكل شىء ، وأن التلميذ جاهل بكل شىء • وهذا مع بطلانه سبب الى مضار لا أوخم من عواقبها ولا أسوأ من نتائجها • فانه يمحو ثقة التلميذ بنفسه ، ويحدث فيه احتقارا لعقله ، فيخجل من نفســه كالمجرم الذى ارتكب إثمــا لا يغفر •• فيقف أمام أستاذه خاشــع البصر ، مكسور النفس • وهذه أجلى مظــاهر الذل والهوان ، فتلاميذ هذا شــأنهم من الذلة والانكسار لا ينتظـــر أن يكون منهم فى المســتقبل رجال تجيش بالحرية صدورهم • ذلك فضلا عما تسببه هذه المعاملة السيئة من انطفأ ما يشتعل بذهن التلميذ من لهيب الفكر الذى جعله الله سراجا للناس يهتــدون به فى جميــع شئونهم ، والذى لم يزل منذ نشأة العــالم : الدليل الأوضح الى مكامن العلم ومسالك الحق • وأضف الى

ذلك أن التلميذ الذى هـذه حالته ، تضرب على منافذ ذهنه حجب من الخوف والذلة والانقباض ، فلا تستطيع عين ذهنه نفاذا الى أعماق ما قـد ينشره الأستاذ على الطلبة من المعلومات . والقارىء يعلم كيف أن الهيبة والانقباض يكفان شعاع الفكر ، ولابد أن يكون قد مر عليه وقت جرب فيه ذلك بنفسه . ثم يعلم كذلك أنه لا شىء أعون على الفهم من ارتيـاح النفس وانشراح الصدر الى مايلقى عليه الأنسة والتفتح . وإنى لأعجب كيف يقدم الأستاذ على تعليم تلاميذ لم يطلع على أذهانهم فيعلم استعدادها وقوتها وما يصلح لها وما تميل نحـوه وتنزع إليه . وانما مثله فى ذلك مثل من يأتيه أحـد الناس ليستعين به على قضاء حاجات فى نفسه ، فـلا يتركه يشرح له ما فى صدره ، بل يبادره بقـــوله : « اســكت ، فانى أعلم بك منك ، وأفطن منك الى حاجاتك » . ثم يأخذ يصنع له كل ما ينـاقض مآربه وينافى مطالبه . وهذا من المضحكات المبكيات .

يجلس التلاميذ سـكوتا كأن على رءوسهم الطير . والأستاذ يصب عليهم من أقواله وابلا مدرارا ، ظنا منه أن هذه الكلمات ستصيب من عقولهم مواقع الخصب

من الرياض العطاش •• ولم يدر أنها تمر بتلك الأذهان مر الهواء أو السحاب • نعم • السحاب الجهام العقيم الذى لا يثمر ولا يغنى •

يرى الأستاذ الطفل الصغير لا يبرح يسأله أهله عن الأشياء وأوصافها وفوائدها ، فيعلم عنها ما يعلم بناء على هذه الأسئلة •• ثم يرى كذلك أن السؤال لم يزل السبب الطبيعى الى التعـــلم •• حتى اذا تشوف الإنسان الى إحدى المجهولات راح يسأل عنها كل من لاقاه • ثم لا يقر حتى يعلم عنها ما يشفى غليل تشوفه • فباعث الإنسان على التعلم هو باعث نفسانى • أقول كل ذلك يراه الأستاذ • ثم لا يخطر بذهنه أن يحبس من أمطار أقواله المنصبة على رءوس غلمانه ويجتهد أن يكون محركا لتشـــوفهم وتطلعهم ومثيرا لأسئلتهم حتى إذا فعل ذلك استفاد التلاميـــذ من أجوبته وأقــواله ما يستفيد السائل المشتاق بأسئلته • وهذه كما ذكرنا هى الطريقة الطبيعية للتعلم • ولا يمكن الأستاذ إثارة أسئلة الطلبة إلا اذا أخذ هو يسألهم • والسؤال من أكبر وسائل الفائدة فى التعليم •• فهو الذى يحرك الطالب الى البحث والتنقيب فيما يحصـــل لديه من المعـــلومات

ليفرز ثمينها من الغث وصالحها من الفاسد ، فتقوى فى التلميذ ملكة الفحص .. ثم يبصر ثمرة تفكيره فيعلم أن لذهنه قوة وفضلا .. فتكبر فى عينيه قيمة نفسه .. ويشعر أنه الى أن يكون شريك الأستاذ وصديقه .. أقرب من أن يكون عبده ورقيقه .

والثقة بالنفس ، اذا لم يمازجها الغـرور ، من أمتن وسائل النجاح . فهى مبعث العزيمة ومثار الهمة وجناح ينهض بالنفس اذا قعد بها الملل والسأم .. وهى كذلك سيف على أعناق الشك والهيبة والانقباض..وهى رائد الذهن الى منتجعات العـلم ، وقائد النفس الى غايات الفضل والعلاء .

إن نظام تعليم يكون شعاره استعباد أذهان الطلبة واسترقاق نفوسهم هو سم نافع يستأصل من البـلاد روح الحرية وإن تردد خيالها على ألسنة الجمهور كمـا يتردد خيال بعض الكلمات على لسان الببغاء .. وكم أناس تراهم يلهجون بلفظة الحرية ، ويتحمسون للوطن، ويثورون عنـد ذكره . فاذا تلطف الإنسـان فراقب أحدهم وهو يسير فى فلك معيشته ، رأى منه جنبا ينافى تحمسه وصغارا ومهانة تأباها العبيد الأرقاء . فماذا

ينفع ادعاء اللسان اذا كانت القلوب كاذبة • وماذا ينفع صياح الأفواه اذا كانت الأفئدة ملجمة خرساء •وخابت حرية اقفرت منهــا القلوب فعــادت تتردد بين الألسنة والآذان •

الوقت

من جال جولة فى طرقات القاهرة بعد هزيع من الليل خيل له أن بين معظم الناس وبين الوقت ثأرا شديدا فهم يدأبون فى قتل الوقت بكل وسيلة حتى ليحتمل بعضهم قضاء ست ساعات متواصلة فى لعب الورق لا يعدو ذهنه التنقل بين ما هو مرسوم على صفحاته من اللمع المختلفة الألوان والأشكال ، فياليت ذاك الصبر والمثابرة مبذولان فى سبيل العلاء .

كل يذكر ما يراه أحيانا من قلق أخيه وضيق صدره، فاذا سأله سبب ذلك ، قال : « ما أثقل الساعات وأطولها » . وهذه كلمة لا يكاد يقولها بعض المساجين، ولا أرى عذرا لمن منحه الله العافية والرزق والحرية ، ثم تراه مع ذلك يشكو مر الساعات كأنما يطأ أجفانه منها أخفاف الإبل ، بل لا أرى فى ذلك ، إلا ضعف

نفس ، وعجز رأى ، وكفرانا بنعمة الله . قال الفيلسوف الرومانى : « الناس فى صرف أوقاتهم ثلاثة رجال : رجل ينفق عمره فى غير شيء ، ورجل يصرفه فى الشيء يضعه فى غير موضعه ، ورجل يمضيه فى غير الواجب عليه . ثم لا يزال الإنسان يضيع الأوقات كالكاره لها ، وهو مع ذلك يشتكى قصرها » .

وإنى لأعجب كيف يشكو المرء ضيق الوقت ، ثم تراه مع ذلك يتمنى انقضاء كل برهة منه . فالقاصر يود لو أصبح راشدا ، والراشد يرجو أن يضحى ولى عمل عظيم ، وولى العمل العظيم يتمنى لو ظل مثريا ، والمثرى يأمل لو أمسى ذا منزلة ، وصاحب المنزلة يشتهى لو بات معفى من العمل . لذلك ترى الحياة ، وإن أجمع الناس على قصرها ، طويلة الأقسام . ثم ترى ابن آدم مع اشتهائه طول العمر يود لو تقصر أجزاؤه .. فالدائن يستعجل موعد الدفع ، والسياسى يرضى أن ينقص زمنا من عمره اذا كان فى ذلك نجاح أمنيته ، والعاشق يتمنى أن تحذف من حياته أوقات الفراق . وكذلك يرجو أحدنا مع سرعة مر الزمن لو أنه أسرع مرا وأوشك كرا . فكم نمل الساعات حتى كأنها أعباء

على أحداقنا . ونتمنى زوال الأيام ، لا بل السنين ، حتى كأن المرء فى قطعه العمر سائح يطوى قفارا خـلاء قواء قد يصادف فى أثنائها البقة الخضراء ، فهـــو يدأب فى نهب المســافات وبوده لو نقصها الله تسعة أعشار ليعجل استمتاعه بتلك البقعة الطيبة .

ولما وجدت وقت الكثير منـا يكون معظمـه هوات بعيـــدة خالية من كل لذة وفائدة ، رأيت أن أعرض ماعسانا نملأ به هذه المهاوى الفيح ، لنمتع ونستمتع ، ونفيد ونستفيد .

وأول ما أعرض من أعمال الخير التى يحسن بنا مباشرتها فى أوقات الفراغ ، هو القيـــام برفع منار الفضيلة ، وهدم عماد الرذيلة ، وذلك بوعظ الجاهل ، وإغاثة اللهيف ، وإنعاش المعدم وجبر المهيض . فـلا ندع فرصة خير إلا ونقتنصها ، ولن يعدم الإنسان فى يومه فرصة لتسكين غاضب ، أو نصر مظلوم ، أو إزالة حقد حاقد ، أو غير ذلك من الأعمال التى تلذ صاحبها وتنفع الغير .

وخير مايرفع عماد الفضيلة هو أن يخلو الإنسان بنفسه ساعة ، فيتوجه اليهـــا ، ويحاسبها على كـل

ما أتت ، فان أعقل ما يكون الإنسان وأعدل وأنزه من السفه وأبرأ من الحمق إنما هو فى حين خلوته • لخلو القلب بعض الشىء اذ ذاك من أدواء الشـــهوات ، وخلوص الذهن نوعا من شوائب الأغراض ، فاذا خلا المرء بنفسه فحاسبها على أعمالها كان حريا أن ينكر من ذلك كثيرا مما كان أعجبه من قبل ، فيلوم نفسه ويوكل بها ضميره ، فيكون من وخزه إياها ما يقوم من عوجها ويثقف من أودها • ومن مزايا الخلوة أيضا أنها تسمح للمرء بالتبصر فى مستقبل أمره ، فهو لا ينفك يقلب الرأى على جمرات ذهنه حتى ينضج • وتقليب الرأى من أكبر فضائل أولى الحزم والنهى •

صورة الماضى

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن عهدك إلا حلما
بالدجى ، أو خلسة المختلس

حدثنى أحد الناس قال : « ساقنى الشوق من حيث لا أشعر ولا أريد .. الى دار هجرها السكان..وعطلها القطار . فلم أنتبه إلا بين الرسوم المحيلة .. فتمثلت :

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى
إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وقفت وسط المكان كأن قفر فى قفر ، وقبر فى قبر . لا فرق إلا أن سكتة الدار خرس فوق خرس . وتحت لسانى الصامت أحشاء تصخب ، وفؤاد يضج . وان

كان سكوت الدار أنطق وأفصح ، وأبين وأشرح . وشممت من الطلول عبق الغابرين . هو كل ما بقى للمكان من جثته الزائلة ، وحوره الراحلة . وكأن للدار روحا تبثنى الأسف والشكوى .

قصدت غرفة كانت فى سالف الزمن مجال النعيم واللهو . وحركت الباب .. فأرسلت مفاصله صيحة وهبها الصدأ ماشئت من الفصاحة . فكأن الوقت نفسه يتكلم . ولكن هيهات ! لقد خرس الوقت فى ذاك المحل ، أو وكل الكلام لقطع الزجاج المنثورة فى الغرفة .. كالنجوم بينها تنف القماش كأنها الورق الذابل فى الشتاء .

وقد نديت الجدران ، وخرج عليها عرق الرطوبة كأنه مجارى الدموع فى خد اليتيم . وكأن الغرفة سرير موت ينشر عليه العنكبوت أكفانه الترية . والعنكبوت رقيب الإنسان يكتب بقلمه الحريرى ذنوبه والآثام . والزجاج يخفق فى النافذة صبابة أو وجلا . والريح فى خروقه الخربة تصفر وتحن ، وتزفر وتئن ، وتعول وترن .

ماذا أبصر فى ذلك الركن ؟ قانون معطل ! مهجور فى

زاوية النسيان كأنه فؤاد مهجور . تقطعت أوتار الشجن والشجى . وخمدت أنفاسه إلا أنه تهيجها كف النسيم لو ترجمت الى العربية لكانت :

يا نسيم الريح من كاظمـة
شد ما هجت الجـوى والبرحا

فتناولت القانون فى رفق وإشفاق . وحركت الأوتار فأجهشت بالبكاء . وكادت نغمـاتها تكون دموعا . قلت : يالله ! لقد كنت قانون الرجاء فأصبحت لليأس . كنت بريد الفلاح ولسانى المنى ، تنفح المسامع المشتاقة بحديث الحب الوردى ، والغزل العطرى ، أيام نجلس فى مشرق الحياة الذهبى .. على فردوسها السندسى . فتلفتنا أيها القانون الى حيث ينتظر الزهر الجنى والثمر الشهى . وطالما كنت نجابا لشمس النعيم تتقدمها بأغانى الغرام ، وأغاريد الطرب .

مات ذلك الزمن ، ونصبتك يد الشؤم فى جو الفساد تحت أندائه القارسة ، وانقطع الرجاء من صـدحاتك الرنانة ، فهل بقى من همساتك الخفيضة ما يخفض الهم ويسكن الألم ؟ ..

أما الغرام ! فقد اقفر ما بينك وبينه منـذ كذبت

أحلامك وطاشت سهامك . فلم يبق إلا مرارة الشكوى، ومضاضة الذكرى . ولخير منهما اليأس المريح :

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى
تعبا كظن الخائب المكدود

فاما صمته اليأس الجامدة ، واما قهقهة السخر والاستهزاء بتلك الخدع والأضاليل ، ولو أنصف الإنسان لاستبدل بأوتار قلبه البالية أسلاكا تلقى صروف القضاء بالضحكات النحاسية . وإذا كان هناك مزية تستأهل الحسد ؛ فتلك هى القسوة وعدم المبالاة . فان أشقى الناس أرقهم شعورا .

أيها النعيم الآدمى ! أنت الندى الجائل فى صفحات الورد نلتمسك فتدمى على الشوك أيدينا ، وأنت هباء لا تنال . برقك الخلب يبعث فى الوجوه حمرة الرجاء . فيا سرعان ما تذهب الحمرة ويا طول البلاء . أنت قرض نرده مع الربح المركب . أنت ضحكة نسكب على قبرها ماء الحياة . أنت حسنة اليوم سيئة الغد . نباشرك متعة ونذكرك عذابا .

بالأمس كان هذا المكان قرة العين . وها هو الآن

قذاها . ومن القرة القـــذى . كذلك الماس والفحم
واحد .

يا برهة كانت لنا ههنا ، وأين من الماضى محلك ؟
الماضى لا شيء . وأنت لا شيء . والمستقبل لا شيء .
وكل شيء لا شيء . وحماقة أن نأسف على لا شيء .
فطوبى لمن لا يحزن .

أيهذا المكان ! أتذكر الســـاعة البيضــاء والصبابة
الحمراء ، والسكرة والطرب .. والألم اللذيذ..والموت
الحى . أذكر ذلك أو أنسه . سأذكره أمام الله .

بذلك الرمل .. وقد اصفر الأصيل .. سرنا نجوب
السهل الأصفر ، كأننا من ظبائه أو جاآذكره . كان
هناؤه أنقى من ذلك الرمل ، وصفاؤنا أصفى . والكون
تشوبه حمرة لطيفة تضرب فى الرمال وتفيض على الغرب
.. حبذا الحمرة ثوب الشباب وعنوان الطرب .

لاحظنا حينذاك السعادة ، وما راعنا إلا سرعة الوقت
حتى ناديت : « أيها الوقت الطائر بأجنحة البرق . قف
مكانك ! لشد ما أذنبت إلينا فيما مضى ، فهلا أرضيتنا
الآن ؟ كم ساعة بكر لم نفضض ختــامها ، خطفتهـــا
عجلاتك فذهبت كما تموت فى كمها الزهر . ماذا عليك

لو وقفت فلم تبرح • أيها الطائش العجلان ! أين تقصد ؟ لا شيء • إذن فما بالك تبخل بالريث والمهل • يا لص اللذة ، ومهدى الألم • أفي النعماء أسرع من القطاة ؛ وأبطأ في الضراء من السلفاة • إني أغمض عليك الطرف وأنت تبر ، فأفتحه عليك ترابا • أيها التاجر الغابن ! تبيعنا السنين بالدموع والحسرات • ننقدك الآلام ثمن الساعات • لا يغرنك ملكك فانه هناءة في ملك الله • أما سلطتك فلا تتعدى شبرا من العمر أياما معدودات • ثم ينقذنا منك الأبد • فان كنت ذا نفوذ فانه سحابة صيف . كما يكون في محاجر الصحة ومحطات السفر • ما أبعد عالم الأرواح من ثوائرك • حيا الله الموت ، سيخيب فينا إرادتك ويتركك تريق نقمتك على عظام نخرة ، وتبرى مخالبك على قبر بقفرة •

أيها الوقت ! قف أتزود من اللذة الحاضرة الفانية • وما أنت بواقف لكأنك لغير الفساد لم تخلق فما أحقك بقول الشاعر « شيلى » الذى قال فيك : « أيها البحر المجهول الأول والآخر • ماؤك الحزن العميق ، وموجك الأعوام الطامحة • عمر الإنسان محصوز بين غايتى مدك

وجزرك ، لا تبرح تزأر مزدادا من فرائسك على سآمتك إياها ، وقذفها قيئا على ساحل الفناء المخوف . يا غادر السكينة وهائل الثورة . تالله ! ماركبك الإنسان مختارا » .

بذلك الرمل ، وقد فارقتنا الشمس عليها من وقار الصبر وهدوء العزاء . ما يعلم الصديقين كيف يفترقان (يا واع الشمس ! أنت مثال القوة ، ونموذج السمو ، قد ألمح فى معانيك شيئا من نابليون الأكبر إذ يودع الحياة فى منفاه الصخرى) . بذلك الرمل وقد دبت ظلال المساء ، وقفنا على ينبوع من الماء له جوف يجيش بالعنصر السيال ، ويرميه حيا قويا . وما هو إلا ذراع أو نحوه حتى تعترضه الحجارة فتكسر من حده وتكف ميعته . فيرتد مخذولا ويقف عاجزا ثم يتسرب بعضه من تحت الحجارة ، ولا يكاد يسترجع حدته حتى يعارضه الحصى صغيرا وكبيرا الى أن يهزل الماء ويضمحل فيجف. نظرنا الى الماء فتنفست الصعداء . وصاحبى ناعم البال مثلوج الفؤاد . قلت له : « ماذا تبصر فى الينبوع من العظة » . فضحك وقال : « غن لنا صوتا على خريره ». قلت : « ما أجدر الينبوع منى بالبكاء لا الغناء .

أيها الينبوع الخائب الأمل ، المعكوس الرجاء ! مثلك كمثل الإنسان . يجيش قلبه بالحب لأخيه حتى اذا فاض جبهته عوارض القسوة والجمود . ويأبى وداده إلا فيضا وانسجاما ، فيحاول الاستمرار بين وعور الجحود . ثم يغلبه الغدر فينضب . ولكن منبع الحب فى قلبه لا يبرح غزيرا يمده الحب الأبدى ، أعنى الله . حتى يعود الإنسان المحفوف بالعداوة ، كالواحة باطنها الحياة وحولها الموت » . عند ذلك أطرق صاحبى . وجرى الأسى فى عينه كالظل الأسود على بريق الماء . والتمست لحاظه فاذا هى تطمح كأنها تستشف زرقة السماء عن عالم الغيب .

سقط الظلام ، وانقرض الشفق ، قلت لصاحبى : « أين الشمس ؟ قضت ، وأورثت الدنيا شفقها الأحمر ذكرى جميلة حفظا للعهد . فأين الشفق ؟ مضى » وكذلك الصاحب يذهب وتتلوه ذكراه فكأنه لم يكن :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالك

لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ما أوجع الحياة يا أخى • الحياة شجرة ثمرها الشوك • والشباب غرور ، والغرام جنون • والموت أروح من فرقة لا تئول الى لقاء • « وأشقى العالم قلبان صدعهما الدهر فتمزقا ولم تبرح عليهما جراح الشتات مع اتساع الهاوية بينهما • كصخرتين كانتا قطعة ثم ضربهما البحر فتصدعتا • واستمرت عليهما خدوش التفرق مع بعد ذات البين • ولم يكن فى طاقة الحر والبرد ، والبرق والرعد ، وبحر الوحشة الجائش ، ما يمحو خدوش النوى وجراح التمزق» (١)

أيهذا المريد إعدام الحب تقصم بالهجران عراه • قد رفع الله أسباب الهوى عن غوائل الحدثان • الحب سماوى أزلى • « إن الفؤاد ليتفتت على الهجر فلا يزيد إلا ولعا ، كالمرآة تريك صورتك وتتكسر فتريك ألف صورة » (٢) •

أيها الهاجر المحتجب بالفرقة ! الجمال المجتمع فى شخصك متفرق فى الكون • فماذا ينفع الحجاب اذا رأيناك فى الشمس والقمر • والشفق والسحر•وسمعناك

---

(١) من قصيدة « كريستابل » للشاعر الانجليزى كولريج

(٢) للشاعر بيرون •

فى العود . والحمام على العود . وشممناك فى الزهر والمسك والعنبر :

فــان تحتجن فالله جم عطـــاؤه

وإن تحتجب فالشمس جم طلوعها

أيها المحاول ستر الملاحة يصادر السنن الطبيعية . يد الله فوق يدك ، حرمتنا آية الحسن فقرأنا حروفها فى صحيفة الوجود . حجبت منظوم الجمال فالتقطنا من حجر الطبيعة منثوره . منعتنا طلعتك فهلا منعت الصباح أن يشرق ، وصـحيفة النهر أن ترقرق . إن الفــرح ليضاحكنا فى أشعة العيون وأشعة النهار ، وكل هذه منك . فهل طوال الفراق ؟ ..

ذهبت بحلاوتك .. فهــل يستطيع الربيع أن يخفى حلاوته ؟ عطلت المسامع من نغمك الشجى .. وهذه نغمة البلبل فى أذنى . ونأت أنفاسك الطيبة . وتلك نفحات الورد تشملنى :

يذكرنيك والــذكرى غنــــــاء

شمائل فيك طيبة الشـــكول

نسيم الروض فى ريح شـــمال

وماء المزن فى راح شـــمول

إن الحزن لينام برهة ، ثم يوقظه الشيء الذى لاتشعر به لفرط ضآلته . يلدغ الحزن النائم خلسة كأنه إبرة العقرب فيهب ممتلئا بالسم الجديد . وربما كان ذلك الشيء الدقيق صوتا أو لونا أو أرجا أو نغمة أو زهرة أو الريح أو الماء . كل هذه تضرب سلسلة الكهرباء التى تربطنا باللذات المنقرضة والمحاسن الغائبة ، قاتل الله الذكرى ، إنها الصاعقة تترك القلب أسود من الطلل المحروق ، وتنبش قبور الماضى .

ويل للمحب ، إذا قال : « ألهو » ضاعف اللهو آلامه. والنعم جحيم العاشق وأندى اللذات لذاعة لحشاه . والنغم الزلال ينزل عليه بردا فيقلب حميما . وكذلك الحب لهب يترك النعمة اليانعة رمادا .

فلما انتهيت من مقالى ، قال صاحبى : « مابالك كأنك ماعرفت إلا الشقاء » . قلت : « تيار خوف يتخلل عظامى كالثلج الذائب . ودمعة تكمن فى جفونى يخبراننى أن هذه ســــاعة الوداع الأخير . لذلك أنظر إليك الآن كالناظر الى الشمس وقدماه على المشنقة .. لا تعجب من حزنى وأنت معى . فالحزن أليف الحسن والفرح . أليف الحسن الزائل والفرح المهدد . الحزن ألف اللذة

المتألمة التى بينا نذوقها عسلا اذا هى السم . إن الحزن ليأخذ مخبأه فى ثنايا السرور . وينصب على بهجة الجمال عرشه الأسود » (١) .

قلت له ذلك وفارقته لألقاه يوم القيامة . ثم علمت الريح قولا تحمله الى الغائب الميئوس من لقائه :

« أيها الغائب ! لأخالنى على بعد المزار قائما فى ظلك . كنت أدبر أمرى فأمسيت منه على صهوة الجامح الهائم وراء كل حلم وذكرى . لا أملك نفسى الملتاعة بل تملكنى اللوعة تلفتنى أبد الدهر الى حيث أنت كأنى إبرة المغناطيس تشير الى نجم الشمال .

أيها الغائب إن يدى لتحس لمستك :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وإن البين ، مهما حال بيننا ، ليترك نفسك فى نفسى ونفسى فى نفسك كالمرآتين المتقابلتين تحتوى كلاهما الأخرى وإن كانت الأولى فى الأرض والثانية فى السماء .

(١) الشاعر كيتس .

أيها الغائب ! إن شمائلك ومعانيك ملموحة فى كل ما أفعل ، وإنى أنم عليك كما تنم الريح على خميلة الورد . والنبيذ على عنبه » .

تلك رسالتى مع الريح ، لو أدت الريح الرسالة !

فهرست

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

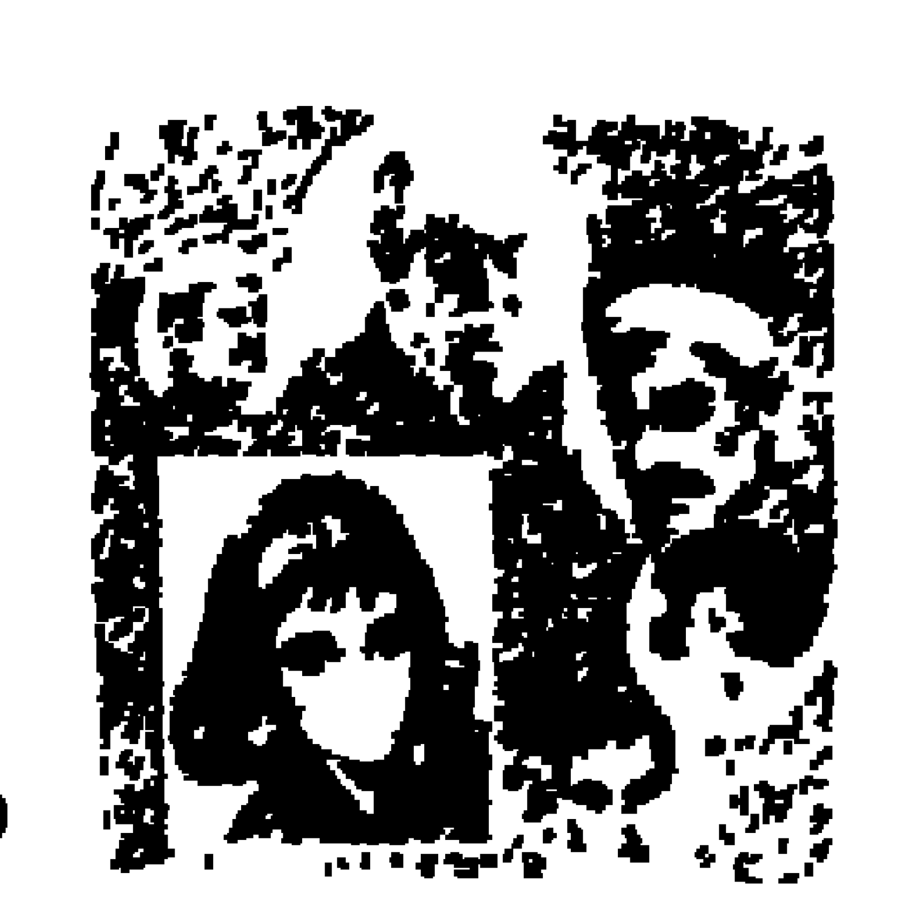
جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

انجلترا :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.

البرازيل :



هـذا الكـتـاب

من اجل وأجمل ما خط قلم الكاتب الكبير المرحوم الاستاذ محمد السباعي ، كتاب « الصور » ·· فهو زاخر المعانى ، حافل الفكر ، تتالق لغته العربية حيوية ، ورقيا ، وشاعرية ···

ولقد اشاد بكتاب « الصور » كبار النقاد ورجال الفكر والادب ، وقال احد اقطاب « مدرسة الديوان » الشهيرة فى تاريخ نهضتنا الشعرية ، الناقد الشاعر الجهير عبد الرحمن شكرى : « بكتاب الصـــور ، سبق السباعى زمانه ! » ، وكتب الاستاذ الكبير ابراهيم عبد القادر المازنى ـ يقول : «··· وكتاب الصور ثمرة لما يضطرب به صدر السباعى الكبير وتجيش به نفسه ··· ولقد كانت فيه فكاهة حلوة تهون العسير ، وتذلل الصعب ، وتجلو صدأ العيش ·· وكان كانما لا يشعر باى منافسة له فى بابه ، لفرط ثقته فى قوته واقتداره ! » ·

والسباعى الكبير ، عالم مترجم واديب فنان ، اثرى المكتبة العربية بكنوز من مؤلفاته من اهمها غير كتاب « الصور » كتاب « السمر » ، بالاضافة الى مترجماته من روائع الادب الانجليزى ، ومنها كتـــاب « الابطال لكارليل » ، و « قصــــة المدينتين » لديكنز ، و « ذات الثوب الابيض لكولنز ، ومختارات من شعر بيرون ، و « رباعيات الخيام » عن فيتز جرالد ··· وكان فى كل ما يقدم للقارىء العربى من مترجماته حسن الاختيار ، حسن الاداء ، جدير بمكانته العالية بين اعلام المترجمين وفى ركب المقدمين من ادباء النهضة الجديدة ··

١٢ قــرشـــا